أصول الحب

تأليف

ابن حزم

تقديم ودراسة

د. فائق الجوهري

الكتاب:أصول الحب

الكاتب:ابن حزم

تقديم ودراسة : د. فائق الجوهري

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

ابن حزم

أصول الحب / تأليف :ابن حزم ، تقديم ودراسة : د. فائق الجوهري

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٠ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى:٨ – ٧٨٠– ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوانرقم الإيداع :١٠٦٦٤ / ٢٠١٨

أصول الحب

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

مؤلف الكتاب هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم. ولد في قرطبة في سنة ٣٨٣هـ. وكان أبوه من عظماء دولة الأندلس، ووزيرا للمنصور محمد بن عبد الله، وكانت أسرته على جانب كبير من الجاه والعلم مما مكن للأب، ثم لولده ابن حزم من بعده، أن يكونا من أعلام الدولة المبرزين.

وخلف ابن حزم أباه في الوزارة، فكان وزيرا لعبد الرحمن المستظهر بالله ثم لهشام المعتد بالله، ولم يتح لمنصبه الوزاري أن يصرفه عن رغبته في العلم، فأقبل على فنون العلم والأدب حتى نال منها ما لم ينله بالأندلس قبله أحد. وكثر أعداؤه وحاسدوه، وأخذ خصومه السياسيون يكيدون له، وكان يؤثر العلم والأدب على السياسة، ويأنف من خصومات السياسة ومهاتراتها فطلقها، وترك منصبه كوزير ليكون بمنجاة من أذى خصومه، وليفرغ للتأليف.

وكان جريئا صريحا في آرائه يقول بما يعتقد، ويجادل في قسوة وعنف من يخالفه في آرائه حتى لقد قيل أن لسانه وسيف الحجاج الثقفي كانا شقيقين. فنفرت عنه القلوب، واتحد فقهاء وقته على بغضه، وأجمعوا على تضليله، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم من الدنو إليه والأخذ عنه. وقد نجحوا في تأليب الجميع عليه، فاضطر إلى

الفرار عن موطنه، وامتدت الأيدي إلى كتبه فأحرقتها ومزقتها في الشوارع والميادين، فقال في ذلك.

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل أن أنزل ويدفن في قبري

وقد ظل يعاني من ذلك الحر ويصطلي بناره من نفي وسجن. وتقاذفته مدن الأندلس بل تقاذفته مدن العالم الإسلامي الغربي، فتوغل في البراري والصحاري، وعبر إلى البليار وظل يلاقي ألوان المحن وضروب الخطوب حتى مات سنة ٤٥٦ هجرية، وهو في الثالثة والسبعين من عمره، وكأنه خشي أن يغمطه الدهر بعد موته، فأرسل هذه النفثة المتأججة.

أنا العلق[1] الذي لا عيب فيه — سوى بلدي وأني غير طاري
تقر لي العراق ومن يليها — وأهل الأرض إلا أهل داري
طروا جسدا على أدب وفهم — وعلم ما يشق له غباري
فمهما طار في الآفاق ذكري — فما سطع الدخان بغير نار

(1) العلق بالكسر النفيس من كل شيء.

وقد قيل أن ابن حزم بز كافة من سبقه من علماء الإسلام في عدد الكتب التي ألفها ما عدا الطبري. وأن له نحو أربعمائة مجلدا في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل والأدب والتاريخ والنسب إلى غير ذلك. مما ينيف على ثمانين ألف ورقة!! وهو ما لم يعلم لأحد في دولة الإسلام قبله، ومنها هذا الكتاب الذي نقدمه للقراء واسمه في الأصل "طوق الحمامة في الأُلفة والأُلَّاف".

وقد وجدت نسخة واحدة من "طوق الحمامة" في مجموعة فارترفي لايد وهي كراس مجلد عدد صفحاته ٣١٦. وتقع كل صفحة في أسطر تتراوح بين العشرة والخمسة عشر سطرا، وهي واضحة الخط، مشكولة الشعر ظاهرة العناوين، وقد استفاض الحر الأحمر في أكثرها، ولكن فيها كثيرا من الغموض يبدو أنه يرجع إلى الأصل والمعنى لا إلى الخط والنسخ، ولم تكن نسخة المؤلف لأنها نسخت في سنة ٧٣٨ للهجرة وهي تقابل سنة ١٣٣٧ ميلادية وهكذا فإن الأصل الصحيح للطوق لم يصل إلينا.

وكان أول ما عرفه الناس من هذا الكتاب ما نشره المستشرق دوزى في مجموعته عن آثار لايد، ثم في كتابة "تاريخ الإسلام في إسبانيا"، حيث نشر بعض قطع منه، وبعض حوادث ابن حزم العاطفية وما كان من حبه العذري. ولكنه لم ينشر أصله العربي، وقد حاول ذلك من بعده فرنسكو بون بواج. ومهد له بتحليل عام للكتاب في مقال نشره في سنة ١٨٩٩ ولكن المنية عاجلته قبل أن يتم ما بدأ به، وكان للدكتور بتروف

الأستاذ في الجامعة له بتحليل عام للكتاب. وترجم لفهرسه أولى طبعات الكتاب. وقد طبعته مطبعة بريل في مدينة ليدن في سنة ١٩١٤، وظهرت للكتاب حتى الآن فيما نعرف طبعتان: واحدة في بيروت قدم لها الشاعر العربي الأستاذ محمد البزم، والأخرى في مصر حققها الأستاذ حسن كامل الصيرفي، وقدم لها الأستاذ إبراهيم الإبياري.

وقد كتب ابن حزم كتابة هذا وهو في منفاه، استجابة لرغبة صديق له من العلماء. وقد يبدو غريبا أن يستجيب فقيه كابن حزم على سمو مكانته، لمثل هذه الرغبة عن وضع كتاب في الحب. وقد أجاب على ذلك عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين باشا[٢]

فقال "أنه يبدو أن الحب كان خطيرا حقا في إسبانيا المسلمة أيام ابن حزم. وقد شغل هناك المثقفين والممتازين أكثر مما كان يشغل غيرهم من الناس في ذلك العهد، وقد شغل ابن حزم في حياته كما شغل صاحبه، وكما شغله الفقه والتفسير والحديث والكلام".

ويستطرد الدكتور طه حسين باشا فيقول أن المؤلف قد "أعطانا في كتابه صورة وطن كان الناس فيه جميعا يذوقون الحب ويبلون لذاته وآلامه. ولا فرق في ذلك بين أصحاب الجد منهم وأصحاب الهزل، ولا بين الذين يفرغون للعلم والدين، والذين يفرغون للأدب والفن، والذين يفرغون للسياسة والحرب، وأكبر الظن أن أمور الناس كلهم تجري على

---

(٢) مجلة الكاتب المصري المجلد ٢ ٥ فبراير سنة ١٩٤٦.

هذا النحو في جميع أقطار الأرض، ولكن حظوظ الناس من الحرية في تصوير هذا، والتعبير عنه، تختلف باختلاف الأوطان والبيئات والظروف. والظاهر أن إسبانيا المسلمة كانت على حظ عظيم لا في الحب وحده، بل في التحدث عن الحب أيضا".

وكما قال الشاعر العربي الكبير الأستاذ محمد البزم، في مقدمته طبعة بيروت من هذا الكتاب، فإن الحب حق لا يجوز أن يحرم منه أحد. وهو قديم عرفه الإنسان قبل أن يعرف الكلام. وللأمة العربية منه حظ وافر. وقد وشي إلى عربي بأن ابنه يحب فقال: "دعوه فإنه يلطف وينظف ويظرف"!.. وقال الشاعر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

ولعل ابن حزم قد أحس شيئا من الحرج في الكتابة عن الحب، ولكنه لم يلبث أن أعفى نفسه من هذا الحرج حيث يقول أن الحب شيء مباح لا ينكره الدين ولا العرف ما دام لا يتجاوز حدودهما. ويشير إلى حب طائفة من الخلفاء والفقهاء من أبناء الصحابة والتابعين. ثم يروي عن أبي الدرداء قوله: "اجمعوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عونا لها على الحق"، وقد ختم الكتاب بفصلين في فضل التعفف وقبح المعصية. فكان أول داع –كما يقول الأستاذ سلامه موسى في مقال له عن هذا الكتاب– إلى التسامي بالحب. وقد سبق فرويد بذلك قرابة عشرة قرون.

وقد فصل المؤلف في مقدمته النهج الذي سار عليه في كتابه، فبدأ بتعريف الحب. ثم تكلم عن ماهيته أو العناصر التي يتركب منها. وأخذ في ذلك بنظرية الفلاسفة من قدماء اليونان من أن هناك عنصرا رفيعا تأتلف منه نفس واحدة قد قسمت أجزاؤها على المخلوقات فإذا اتصلت هذه الأجزاء كان الحب، وإذا انفصلت كان البغض، وعنده أن هذا الاتصال هو ملاءمة في الشكل وتشابه في الطباع. ومع ما يأخذه النقاد على هذه النظرية فهي تشبه من وجه ما كتبه إدوارد أرنولد بالش الأمريكي، من الكتاب المحدثين في بحث حديث له عن الحب، يقول فيه أن الحب يقوم على التوافق في النزعات بين الناس، وأن الزواج السعيد إنما يكون حيث يوجد مثل هذا التوافق، فليس الجمال الجسمي مصدر الحب، وإنما هو الاتفاق النفسي ولذلك أمكن أن يحب الإنسان من هو غير ذي جمال بالمعنى الذي يفهمه الناس من جمال الجسد.

وقد رتب ابن حزم كتابه ترتيبا منطقيا كما ترى من مقدمته فقسمه على ثلاثين بابا: عشرة منها في "أصول الحب"، كما قال. ومنها اخترنا عنوان الكتاب، ثم اثني عشر بابا في عناصر الحب وصفاته، وستة من الآفات الدخيلة عليه، وبابان في قبح المعصية وفضل التعفف. ولكنه لم يلتزم هذا الترتيب المنطقي. فوضع فصول كتابه حيث اقتضت مناسباتها. فدل بذلك على تحرر من القيود التي كانت تسود التفكير في عصره. وقد تقدم في هذا السبيل فلم يرجع بحديث الحب إلى ما امتلأت به كتب الأدب من أخبار العشاق والمحبين، ولم يحفل بأحاديث الأعراب

وغزل نجد والحجاز وما تكلفه الشعراء من فنون الحب. بل اقتصر على ما لاحظه بنفسه وما رآه أو سمعه أو قرأه من أخبار القدماء في جنوب فرنسا وفى إسبانيا وكتب العرب أنفسهم.

ويعتبر كتاب ابن حزم من أول الكتب التي أخرجت للناس في الحب، ولكنه على كثرة ما ألف بعده في موضوعه، لا يزال ينفرد بما يجعل له مكانة خاصة بين هذه الكتب، فهو يعرض للحب في صراحة خارقة ويخوض فيه غير كاتم ولا مبق على ورع ونسك. وفى سرد طريف يثير الإعجاب.

والمؤلف يحدثنا في كتابه عن نفسه في صراحة رائعة، وقد روى في ذلك أكثر من قصة، وهو يعتمد على الملاحظة المباشرة الحرة الصريحة. يلاحظ نفسه وخلطاءه ويلاحظ الناس من حوله وإن كان قد قيد نفسه بذلك تقييدا غير مستحب، كما قيد نفسه، اقتصر على شعره وحده.

والكتاب في جملته كتاب طيب ممتع، وإن كان قد نحى منحى الأقدمين في بعض آرائه. فهو يشيد مثلا بالإخلاص للحب حتى الميت منه، ويروي في باب الوصف مثلا قصة بنت زكريا بن يحيى التميمي. وقد مات زوجها فباتت معه في جناز واحد ليلة مات، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلا حين موتها. وأنك لتجد مثلا لذلك في الهند القديمة حيث كانت تدفن المرأة مع زوجها إذا مات، وهي نظرة لا يقرها علم النفس الحديث؛ فهو لا يرى في ذلك جمالا ولا نبلا. بل سرطانا عقليا أجدر

بأن يجتث. لأن من طبيعة القلب البشري أن يحب بدلا من المرة مرارا. وليست المرات السابقة إلا نوعا من التجارب التي تزيد في فهم الحب الأخير وتمكينه.

والكتاب في حجمه الأصلي طويل يضيق عن الحجم المقدر لهذا المجموعة وفيه كلام كثير يشق فهمه على القارئ العادي، كما أن فيه كثرة من المترادفات والاستشهادات. والأخبار في معان مكررة، وكلام لا يجوز نشره. ولذلك فقد عنيت باختصاره إلى الحد الذي يلائم الحجم الملائم، ورفعت منه المكرر، ومالا يجوز نشره أو يدق فهمه، وشرحت في الهامش ما وجدت الحاجة ماسة إلى إبقائه وشرحه.

د. فائق الجوهري

مقدمة المؤلف

أفضل ما أبتدئ به حمد الله عز وجل بما هو أهله، ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة، وعلى جميع أنبيائه عامة.

وبعد فإن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني بحضرة شاطبة تذكر من حسن حالك ما يسرني. وحمدت الله عز وجل عليه واستدمته لك واستزدته فيك.

وكلفتني أعزك الله أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة، فبدرت إلى مرغوبك. والأولى بنا مع قصر أعمارنا إلا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غدا وإن كان قد روي عن أبي الدرداء أنه قال: أجموا النفوس بشيء من الباطل ليكون عونا لها على الحق. ومن أقوال الصالحين من السلف المرضي: من لم يحسن يتفتى، لم يحسن يتقوى. وفي بعض الأثر: أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد.

والذي كلفتني لا بد فيها من ذكر ما شاهدته حضرتي وأدركته عنايتي وحدثني به الثقات من أهل زمانه. فاغتفر لي الكتابة عن الأسماء فهي إما عورة لا نستجيز وإما نحافظ في ذلك صديقا ودودا ورجلا جليلا. وبحسبي أن أسمي من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى

عيب في ذكره، أما الاشتهار لا يغني عنه الطي ترك التبيين وإما الرضا من المخبر عنه بظهور خبره وقلة إنكار منه لنقله.

وسأورد في رسالتي هذه أشعارا قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ومن رآها على أني سالك فيها مسلك حاكى الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتجلين يقول الشعر، وأكثر من ذلك فإن إخواني يجشموني القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم، وكفاني أني ذاكر لك ما عرض لي مما يشاكل ما نحوت نحوه وناسبه إلى.

والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك والاقتصار على ما رأيت أو صح عندي بنقل الثقات، ودعني من أخبار الإعراب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي، ولا أتحلى بحلي مستعار والله المستغفر والمستعان لا رب غيره..

وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين بابا منها في أصول الحب عشرة، فأولها هذا الباب، ثم باب من الحب بالوصف، ثم باب فيه ذكر من الحب من نظرة واحدة، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع الطاولة، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الإشارة العين، ثم باب المراسلة، ثم باب السفير.

ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر بابا، وهي: باب الصديق المساعد، ثم باب الوصل، ثم باب طي السر،

ثم باب الكشف والإذاعة، ثم باب الطاعة، ثم باب المخالفة ثم باب الغدر، ثم باب الضنى، ثم باب الموت ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب، وهي: باب العاذل، ثم باب الرقيب، ثم باب الواشي، ثم باب الهجر، ثم باب البين، ثم باب السلو.

ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة، وهما: باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف، ليكون خاتمة إيرادنا وأخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل، والأمر المعروف والنهى عن المنكر، فذلك مفترض على كل مؤمن.

لكنا خالفنا في نسق بعض هذه الأبواب هذه الرتبة المقسمة فجعلناها على مباديها إلى منتهاها واستحقاقها في التقدم والدرجات والوجود ومن أول مراتبها إلى أخرها، وجعلنا الضد إلى جنب ضده، فاختلف المساق في أبواب يسيرة والله المستعان.

ابن حزم

ماهية الحب

الحب أوله هزل وآخره جد. دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل. وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير، ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة – وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الأخبار به عنهم – لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل.

ومن الصالحين والفقهاء في الدهور الماضية من قد استغنوا بأشغالهم عن ذكرهم. وقد جاء من فتيا ابن عباس رضي الله عنه ما لا يحتاج معه إلى غيره حين يقول: هذا قتيل الهوى لا عقل ولا قود[٣]

وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا. والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع.

وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال والشكل دأبا يستدعي شكله. والمثل إلى مثله ساكن. وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد. والتنافر في الأضداد والموافقة

---

(٣) لا دية ولا قصاص.

في الأنداد. والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا. فكيف بالنفس؟ وعالمها العالم الصافي الخفيف وجوهرها الجوهر الصاعد المعتدل، وسنخها[٤] المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار. كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان وزوجه فيسكن إليها. والله عز وجل يقول: "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها" فجعل علة السكون أنها منه.

ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة. ونحن نجد كثيرا ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيدا لقلبه عنه. ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه. فعلمنا أنه شيء في ذات النفس. وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببا. فمن ودك لأمر ولى مع انقضائه.

ومما يؤكد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضروب؛ فأفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل، إما لاجتهاد في العمل، وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذاهب، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان.

ومحبة القرابة، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره،

---

(٤) أصلها.

ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر ومحبة العشق التي لا عله لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس، فكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها، وزائدة بزيادتها، وناقصة بنقصانها، متأكدة بدنوها، فاترة ببعدها. حاشى محبة العشق الصحيح الممكن من النفس فهي التي لا فناء لها إلا بالموت. وإنك لتجد الإنسان السالي برغمه، وذا السن المتناهية، إذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطر واهتاج له الحنين.

ولا يعرض في شيء من هذه الأجناس المذكورة، من شغل البال والخبل والوسواس، وتبدل الغرائز المركبة واستحالة السجايا المطبوعة والنحول والزفير وسائر دلائل الشجا، ما يعرض في العشق. فصح بذاك أنه استحسان روحاني وامتزاج نفساني. فإن قال قائل: لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية، إذ الجزآن مشتركان في الاتصال وحظهما واحد...؟

والجواب عن ذلك أن نقول: هذه لعمري معارضة صحيحة. ولكن نفس الذي لا يحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الأغراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية، فلم تحس بالجزء الذي كان متصلا بها قبل حلولها حيث هي، ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة، ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة، طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشتهية لملاقاته جاذبة لها لو أمكنها، كالمغناطيس والحديد قوة جوهر المغناطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمها ولا من تصفيتها أن تقصد إلى الحديد على

أنه من شكلها وعنصرها. كما أن قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه. إذ الحركة بذا إنما تكون من الأقوى. وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس، تطلب ما يشبهها وتنقطع إليه وتنهض نحوه بالطبع والضرورة وبالاختيار والتعمد. وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب إذ لم يبلغ من قوته أيضا مغالبة الممسك له مما هو أقوى منها. ومتى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها، فمتى عظم جرم [٥] المغناطيس ووازت قواه جميع قوى جرم الحديد عادت إلى طبعها المعهود. وكالنار في الحجر لا تبرز على قوة الحجر في الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلا بعد القدح ومجاورة الجرمين بضغطهما واصطكاكهما، وإلا فهي كامنة في حجرها لا تبدو ولا تظهر.

١٠

ومن الدليل على هذا أيضا أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية، لابد في هذا وإن قل. وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة. فانظر هذا تراه عيانا. وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده: "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف" وقول مروي عن أحد الصالحين أرواح المؤمنين تتعارف. ولهذا ما اغتم أبقراط حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه، فقيل له في ذلك فقال: ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه، وذكر أفلاطون أن أحد الملوك سجنه ظلما، فلم يزل يحتج عن

---

(٥) الجرم بالكسر: الجسد.

نفسه حتى أظهر براءته. وعلم الملك أنه له ظالم، فقال له وزيره الذي كان يتولى إيصال كلامه إليه: "أيها الملك! قد استبان لك أنه برئ فمالك وله؟" فقال الملك: "لعمري مالي إليه سبيل، غير أني أجد لنفسي استثقالا لا أدري ما هو!" فأدى ذلك إلى أفلاطون. قال: فاحتجت أن أفتش في نفسي وأخلاقي لعلي أجد شيئا أقابل به نفسه وأخلاقه مما يشبهها. فنظرت في أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم. فميزت هذا الطبع في. فما هو إلا أن حركته هذه الموافقة وقابلت نفسه بهذا الطبع الذي بنفسي فأمر بإطلاقي، وقال لوزيره: قد انحل كل ما أجد في نفسي له..

وأما العلة التي توقع الحب أبدا في أكثر الأمر على الصورة الحسنة فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة، فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه، فإن ميزت وراءها شيئا من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية. وإن لم تميز وراءها شيئا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة، وذلك هو الشهوة..

وإن للصور لتوصيلا عجيبا بين أجزاء النفوس النائية، وذكر عن بعض القافة[٦] أنه أتى ابن أسود لأبيضين، فنظر إلى أعلامه فرآه لهما غير شك، فرغب أن يوقف على الموضع الذي اجتمعا عليه. فأدخل البيت الذي كان فيه مضجعهما، فقال لأبيه: من قبل هذه الصورة أتيت في ابنك.

---

(٦)جمع قائف وهو الذي يتبع الأثر.

وهذا بعينه موجود في البغضة، ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ولا لعلة ويستثقل بعضهما بعضا بلا سبب. والحب أعزك الله، داء عياء. وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ومقام مستلذ، وعلة مشتهاة لا يود سليمها البرء، ولا يتمنى عليلها الإفاقة، يزين للمرء ما كان يأنف منه ويسهل عليه ما كان يصعب عنده..

ولقد علمت فتى من بعض معارفي قد وحل في الحب وتورط في حبائله، وأضر به الوجد، وأنضجه الدنف(٧) وما كانت نفسه تطيب بالدعاء إلى الله عز وجل في كشف ما به، ولا ينطلق به لسانه. وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكن ممن يحب، على عظيم بلائه وطويل همه. فما الظن بسقيم لا يريد فقد سقمه؟! ولقد جالسته يوما فرأيت من إكبابه وسوء حاله وإطراقه ما ساءني. فقلت له في بعض قولي: فرَّج الله عنك! فلقد رأيت أثر الكراهية في وجهه، وفي مثله أقول من كلمة طويلة:

واستلذ بلائي فيك يا أملي ... ولست عنك مدى الأيام أنصرف

إن قيل لي تسلى عن مودته ... فما جوابي إلا اللام والألف

وهذه الصفات مخالفة لما أخبرني به عن نفسه أبو بكر محمد القرشي، أنه لم يحب أحد قط، ولا أسف على إلف بان منه، ولا تجاوز حد الصحبة والألفة إلى حد الحب والعشق منذ خلق!!

(٧)المرض.

علامات الحب

وللحب علامات، يقتفيها الفطن، ويهتدي إليها الذكي، فأولها إدمان النظر، والعين باب النفس. وهي المنقبة عن سرائرها والمعبرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها؛ فترى الناظر لا يطرف، يتنقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس وفي ذلك أقول شعرا منه!

فليس لعيني عند غيرك موقف كأنك ما يحكون من حجر البهت

أصرفها حيث انصرفت وكيفما تقلبت كالمنعوت في النحو والنعت

ومنها الإقبال بالحديث، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد غير ذلك. وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه. والإنصات لحديثه إذا حدث. واستغراب كل ما يأتي به وكأنه عين المحال وخرق العادات. وتصديقه وإن كذب. وموافقته وإن ظلم. والشهادة له وإن جار واتباعه كيف سلك وأي وجه من وجوه القول تناول.

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه، والتعمد للقعود بقربه والدنو منه، وإطراح الأشغال الموحية للزوال عنه، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته والتباطؤ في الشيء عند القيام منه، وفي ذلك أقول شعرا!

وإذا قمت عنك لم أمش إلا مشي عان يقاد نحو الفناء

في مجيئي إليك أحتث كالبد ر إذا كان قاطعا للسماء

وقيـامي إن قمـت كـالأنجم العـا   ليــة الثابتــات فــي الإبطــاء

ومنها بهت يقع، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة. ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة. وفي ذلك أقول قطعة منها!

إذا مـا رأت عينـاي لابـس حمـرة   تقطـع قلبـي حسـرة وتفطـرا

غد الدماء الناس باللحظ سافكا   وضـرج منـه ثوبـه فتعصـفرا[٨]

ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان متمتعا به قبل ذلك. كأنه هو الموهوب له والمسعي في حظه. كل ذلك ليبدي محاسنه، ويرغب في نفسه. فكم بخيل جاد، وقطوب تطلق، وجبان تشجع، وغليظ الطبع تطرب، وجاهل تأدب، وتفل[٩] تزين، وفقير تجمل، وذي سن تفتى، وناسك تفتك، ومصون تبذل.

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه وتوقد شعله واستطارة لهبه. فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه، فحينئذ ترى الحديث إسرارا، والإعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهارا. ولي أبيات جمعت فيها كثيرًا من هذه العلامات منها:

أهوى الحديث إذا ما كان يذكر لي   فيــه ويعبــق لــي عــن عنبــر أرج

---

(٨) اصبطغ باللون الأحمر

(٩) كريه الرائحة.

إن قـال لـم أسـتمع ممـن يجالسـني إلـى سـوى لفظـة المسـتطرفالغنج
ولــو يكــون أميــر المــؤمنين معــي مـا كنـت مـن أجلـه عنـه بمنعـرج
فــإن أقــم عنــه مضــطرا فــإني لا أزال ملتفتا والمشي مشي وجي[١٠]
عينــاي فيــه وجســمي عنــه مرتحــل مثل ارتقاب الغريق البر في اللجج
أغــص بالمــاء أن أذكــر تباعــده كمن تثاءب وسط النقع والوهج
وأن تقـل ممكـن قصـد السـماء أقـل نعـم وإنـي لأدري موضـع الـدرج

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذي بصر الانبساط الكثير الزائد، والتضايق في المكان الواسع، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما. وكثرة الغمز الخفي. والميل بالاتكاء. والتعمد لمس اليد عند المحادثة ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة. وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء وتحري المكان الذي يقابله فيه!

ومنها علامات متضادة، وعلى قدر الدواعي والعوارض الباعثة والأسباب المحركة والخواطر المهيجة. والأضداد أنداد. والأشياء إذا أفرطت في غايات تضادها، ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت، قدرة من الله عز وجل تضل فيها الأوهام، فهذا الثلج إذا أدمن حبسه في اليد فعل فعل النار. وتجد الفرح إذا أفرط قتل والغم إذا أفرط قتل، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين وهذا في العالم كثير.

(١٠) من وجأه ضربه بسكين أو نحوه.

فنجد المحبين إذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكدا شديدا أكثر بهما جدهما بغير معنى. وتضادهما في القول تعمدا. وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها. كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه. والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر، سرعة الرضى. فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف – الذي لا يقدر يصلح عند الساكن النفس السالم من الأحقاد في الزمن الطويل، ولا ينجبر عند الحقود أبدا – فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة وأهدرت المعاتبة وسقط الخلاف. وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة.. هكذا في الوقت الواحد مرارا!!

وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك ولا يدخلنك ريب البتة ولا تتمار في أن بينهما سرا من الحب دفينا. واقطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف، ودونها تجربة صحيحة وخبرة صادقة: هذا لا يكون إلا عن تكلف في المودة وائتلاف صحيح، وقد رأيته كثيرا. ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب، ويستلذ الكلام في إخباره ويجعلها هجيراه، ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها، ولا ينهه عن ذلك تخوف أن يفطن السامع ويفهم الحاضر.

وحبك الشيء يعمي ويصم، فلو أمكن المحب ألا يكون حديث في مكان يكون فيه إلا ذكر من يحبه لما تعداه. ويعرض للصادق المودة

أن يبتدئ في الطعام وهو له مشته، فما هو إلا وقت ما تهتاج له من ذكر من يحب، صار الطعام غصة في الحلق وشجى في المريء.

وهكذا في الماء وفي الحديث. فإنه يفاتحه مبتهجا، وتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب، فتستبين الحوالة في منطقة والتقصير في حديثه. وآية ذلك الوجوم والإطراق وشدة الانغلاق، فبينما هو طلق الوجه خفيف الحركات صار منطبقا متثاقلا حائر النفس جامد الحركة يبرم من الكلمة ويضجر من السؤال ومن علاماته: حب الوحدة، والأنس بالانفراد، ونحول الجسم دون حد يكون فيه، ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشي. دليل لا يكذب ومخبر لا يخون عن كلمة في النفس كامنة.

والسهر من أعراض المحبين، وقد أكثر الشعراء في وصفه، وحكوا أنهم رعاة الكواكب، وواصفو طول الليل. ويعرض للمحبين القلق عند أمرين:

أحدهما عند رجائه لقاء من يحب فيعرض عند ذلك حائل. وإني لأعلم بعض من كان محبوبه يعده الزيارة، فما كنت أراه إلا جائيا وذاهبا لا يقر به القرار، ولا يثبت في مكان واحد، مقبلا مدبرا قد استخفه السرور بعد ركانة، وأشاطه بعد رزانة. والثاني عند حادث يحدث بينهما من عتاب لا تدرى حقيقته إلا بالوصف، فعند ذلك يشتد القلق حتى توقف على الجليلة. فإما أن يذهب تحمله إن رجا العفو، وإما أن يصير القلق حزنا وأسفا إن تخوف الهجر.

ويعرض للمحب الاستكانة لجفاء المحبوب عليه، ومن إعراض محبوبه عنه ونفاره منه. وآية ذلك الزفير وقلة الحركة والتأوه، وتنفس الصعداء. ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته.

والبكاء من علامات الحب، ولكنهم يتفاضلون فيه، فمنهم غزير الدمع هامل الشئون، تجيبه عينه وتحضره عبرته إذا شاء. ومنهم جمود العين عديم الدمع وأنا منهم، وفي المذهب الذي عليه الناس أقول:

دليل الأسى نار على القلب تلفح ودمع على الخدين يهمي ويسفح

إذا كتم المشغوف سر ضلوعه فإن دموع العين تبدى وتفضح

إذا ما جفون العين سالت شئونها ففي القلب داء للغرم مبرح

ويعرض في الحب سوء الظن واتهام كل كلمة من أحدهما وتوجيهها إلى غير وجهها. وهذا أصل العتاب بين المحبين، وإني لأعلم من كان أحسن الناس ظنا وأوسعهم نفسا وأكثرهم صبرا وأشدهم احتمالا وأرحبهم صدرا ثم لا يحتمل ممن يحب شيئا. ولا يقع له معه أيسر مخالفة حتى يبدي من التعديد فنونا، ومن سوء الظن وجوها.

وترى المحب، إذا لم يثق بنقاء طوية محبوبه له، كثير التحفظ مما لم يكن يتحفظ منه قبل ذلك، مثقفا لكلامه، مزينا لحركاته ومرامي طرفه، ولاسيما أن دهى بمتجن وبلى بمعربد..

ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه وحفظه لكل ما يقع منه، وبحثه عن أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة. وتتبعه لحركاته. ولعمري لقد ترى البليد بصيرا في هذه الحالة، ذكيا، والغافل فطنا.

ولقد كنت يوما بالمرية قاعدا في دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي، وكان بصيرا بالفراسة محسنا لها. وكنا في لمة. فقال له مجاهد القيس: "ما تقول في هذا؟" وأشار إلى رجل منتبذ عنا ناحية اسمه حاتم. فنظر إليه ساعة يسيرة ثم قال: "هو رجل عاشق". فقال له: "صدقت، فمن أين قلت هذا". قال: لبهت مفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته، فعلمت أنه عاشق وليس بمريب..

الحب في النوم

ولا بد لكل حب سبب يكون له أصلا ومبتدأ بأبعد ما يمكن أن يكون من أسبابه ليجري الكلام على نسق. أو أن يبتدئ أبدا بالسهل والأهون، فمن أسبابه شيء لولا أني شاهدته لم أذكره لغرابته، وذلك أني دخلت يوما على أبي السرى عمار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد، فوجدته مفكرا مهتما فسألته عما به، فتمنع ساعة ثم قال: "لي أعجوبة ما سمعت قط" قلت: "وما ذاك؟" قال: "رأيت في نومي الليلة جارية فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها. وهمت بها. وإني لفي أصعب حال من حبها" ولقد بقي أياما كثيرة تزيد على الشهر مغموما مهموما لا يهنئه شيء وجدا، إلى أن عذلته وقلت له: "من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد. هل تعلم من هي؟" قال: "لا والله." قلت: أنك لقيل(١١) الرأي مصاب البصيرة، إذ تحب من لم تره قط ولا خلق ولا هو في الدنيا، ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندي أعذر. فمازلت به حتى سلا وما كاد. وهذا عندي من حديث النفس وأضغاثها وداخل في باب التمني تخيل الفكر.

---

(١١)فاسد الرأي.

الحب بالوصف

ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة، وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب. فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد والسهر على غير الإبصار، فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيرا في النفس ظاهرا. وأن تسمع نغمتها من وراء جدار، فيكون سببا للحب واشتغال البال. وهذا كله قد وقع لغير ما واحد، ولكنه عندي بنيان هار على غير أساس، وذلك أن الذي أفرغ ذهنه في هوى من لم ير لا بد له، إذ يخلو بفكره، أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها، وعينا يقيمها نصب ضميره، لا يتمثل في هاجسه غيرها. قد مال بوهمه نحوها. فإن وقعت المعاينة يوما ما، فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية. وكلا الوجهين قد عرض وعرف. وأكثر ما يقع هذا في ربات القصور المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال، وحب النساء في هذا أثبت من حب الرجال لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن وتمكنه منهن، وفي ذلك أقول شعرا منه:

ويـــا مـــن لامنـــي فـــي حـــب ... مـــن لـــم يـــره طرفـــي
لقـــد أفرطـــت فـــي وصـــفك ... لـــي فـــي الحـــب بالضـــعف
هــــــل تعــــــرف الجنـــــــة ... يومـــا بســـوى الوصـــف؟!

وأقول أيضا في مخالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية:

وصفوك لي حتى إذا أبصرت ما وصفوا علمت بأنه هذيان
فالطبل جلد فارغ وطنينه يرتاع منه ويفرق الإنسان

وفي ضد هذا القول:

قد وصفوك لي حتى التقينا فصار الظن حقا في العيان
فأوصاف الجنان مقصرات على التحقيق عن قدر الجنان

الحب من نظرة واحدة

وكثيرا ما يكون لصوق الحب من نظرة واحدة، وهو ينقسم قسمين فالقسم الواحد مخالف للذي قبل هذا وهو أن يعشق المرء صورة لا يعلم من هي ولا يدرى لها اسما ولا مستقرا، وقد عرض هذا لغير واحد. حدثني صاحبنا أبو بكر بن إسحاق عن ثقة أخبره أن يوسف بن هارون الشاعر، المعروف بالرمادي، كان مجتازا عند باب العطارين بقرطبة، وهذا الموضع كان مجتمع النساء، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه، وتخلل حبها جميع أعضائه فانصرف عن طريق الجامع وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض فلما صارت بين رياض بني مروان –رحمهم الله – المبنية على قبورهم، في مقبرة الربض خلف النهر نظرت منه منفردا عن الناس لا همة له غيرها، فانصرفت إليه فقالت له: "دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي!.. فلا مطمع لك في النية، ولا إلى ما ترغبه سبيل". فقال: "إني أقنع بالنظر"، فقالت: "ذلك مباح لك". فقال: "يا سيدتي، أحرة أم مملوكة؟".. قالت "مملوكة" قال: "ما اسمك؟" قالت: "خلوة".. قال: "ولمن أنتِ؟" قالت: "علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه! فدع المحال!" قال: "يا سيدتي وأين أراك بعد هذا؟" قالت: "حيث رأيتني اليوم في مثل تلك الساعة من كل جمعة" ثم قالت له: "إما أن تنهض أنت أو أنهض أنا.." فقال لها: "انهضي في حفظ الله". فنهضت نحو القنطرة، ولم يمكنه

اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا، فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة.

قال أبو عمر وهو يوسف بن هارون: فو الله لقد لازمت باب العطارين والربض من ذلك الوقت إلى الآن، فما وقعت لها على خبر، ولا أدرى أسماء لحستها أم أرض بلعتها أو أن في قلبي منها لأحر من الجمر؟

وهي خلوة التي يتغزل بها في أشعاره، ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها إلى سرقسطة.. ومثل ذلك كثير.

والقسم الثاني أن يعلق المرء من نظرة واحدة، جارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ، ولكن التفاضل يقع في هذا في سرعة الفناء وإبطائه فمن أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة، فهو دليل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو والملل. وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نموا أسرعها فناء، وأبطؤها حدوثا أبطؤها نفادا.

الحب مع المطاولة

ومن الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافتة[١٢]، وكثير المشاهدة، ومتمادي الأنس، وهذا الذي يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مر الليالي، فما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا، وهذا مذهبي، وقد جاء في الأثر أن الله عز وجل قال للروح، حين أمره أن يدخل جسم آدم وهو فخار، فهاب وجزع، أدخل كرها وأخرج كرها.

ولقد رأيت من أهل هذه الصفة من إن أحس من نفسه بابتداء هوى أو توجس من استحسانه ميلا إلى بعض الصور، استعمل الهجر لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده. وهذا يدل على لصوق الحب بأكباد أهل هذه الصفة، وأنه إذا تمكن منهم لم يحل أبدا. وفي ذلك أقول:

سأبعد عن دواعي الحب أني ... رأيت الحزم من صفة الرشيد
رأيت الحب أوله التصدي ... إذا قد صرت في حلق القيود
كمغتر بضحضاح قريب[١٣] ... فزل فغاب في غمر المدود[١٤]

وإني لأطيل العجب من كل من يدعي أنه يحب من نظرة واحدة! ولا أكاد أصدقه، ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة. وأما أن يكون في ظني متمكنا من صميم الفؤاد، نافذا في حجاب القلب فما أقدر ذلك.

---

(١٢) أسرار المنطق.
(١٣) ماء قليل العمق.
(١٤) جمع مد وهو الماء الكثير.

وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة الشخص لي دهرا، وأخذي معه في كل جد وهزل. وكذلك أنا في السلو والتوقي فما نسيت ودا لي قط.

وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء! وقد استراح من لم تكن هذه صفته. وما مللت شيئا قد بعد معرفتي به، ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائي له، وما رغبت في الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت.

لا أقول في الأُلَّاف والإخوان وحدهم، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك، وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة. وإنه لشجى يعتادني، وولوع هم ما ينفك يطرقني. ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش استأنفه. وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا. والله المحمود على كل حال. لا إله إلا هو. وفي ذلك أقول:

محبة صدق لم تكن بنت ساعة	ولا وريت حين ارتياد زنادها
ولكن على مهل سرت وتولدت	بطول امتزاج فاستقر عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها	ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة	تتم سريعا، عن قريب معادها
ولكنني أرض عزاز صليبة	منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفدت منها لديها عروقها	فليست تبالي أن يجود عهادها

ولا يظنن ظانٌّ ولا يتوهم متوهم أن كل هذا مخالف لقولي، المسطر في صدر الرسالة، أن الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العلوي، بل هو مؤكد له، فقد علمنا أن النفس في هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب، ولحقتها الأغراض، وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية، فسترت كثيرا من صفاتها وإن كانت لم تحله، لكن حالت دونه، فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له. وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها، ومقابلة الطبائع التي خفيت مما يشابهها من طبائع المحبوب، فحينئذ يتصل اتصالا صحيحا بلا مانع.

وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدي، واستظراف البصر الذي لا يجاوز الألوان – وهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة – فإذا غلبت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفصل اتصال نفساني تشترك فيه الطبائع مع النفس يسمى عشقا، ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين.

فإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرناها آنفا، وهي على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق، وأما نفس المحب فما في الميل به فضل يصرفه عن أسباب ودنياه! فكيف الاشتغال بحب ثان؟! وفي ذلك أقول:

ليس في القلب موضع لحبيبيـ ... ـن ولا أحدث الأمور بثاني

فكما العقل واحد ليس يدري ... خالقا غير واحد رحمان

فكـذا القلـب واحـد لـيس يهـوى   غيـــر فـــرد مباعـــد أو دان

وكـــذا الـــدين واحـــد مســـتقيم   وكفـــور مـــن عنـــده دينـــان

وإني لأعرف فتى من أهل الجد والحسب والأدب، كان يبتاع الجارية وهي سالمة الصدر من حبه. وأكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه، وقطوب دائم كان لا يفارقه ولاسيما مع النساء. فكان لا يلبث إلا يسيرا ريثما يصل إليها، ويعود ذلك الكره حبا مفرطا وكلفا زائدا واستهتارا مكشوفا! ويتحول الضجر لصحته ضجرا لفراقه! فمثل هذا وشبهه، إذا وافق النفس، ولد المحبة. إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤدبات نحوها.

حب الصفات

واعلم، أعزك الله، أن للحب حكما على النفوس ماضيا، وسلطانا قاضيا، وأمرا لا يخالف، وحدا لا يعصى، وملكا لا يتعدى، وطاعة لا تصرف، ونفاذا لا يرد، وأنه ينقض المرر[١٥]، ويحل المبرم، ويحلل الجامد، ويخل الثابت، ويحل الشغاف ويحل الممنوع. ولقد شاهدت كثيرا من الناس – لا يتهمون في تمييزهم، ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم، ولا اختلال حسن اختيارهم ولا تقصير في حدسهم – قد وصفوا أحبابا لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس، ولا يرضى في الجمال. فصارت هجيراهم[١٦] وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم، ثم مضى أولئك إما بسلو أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب. وما فارقهم استحسان تلك الصفات، ولا بان عنهم تفصيليا على ما هو أفضل منها في الخليقة. ولا مالوا إلى سواها، بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم. إلى أن فارقوا الدنيا وانقضت أعمارهم، حنينا منهم إلى من فقدوه، وألفة لمن صحبوه.

وما أقول أن ذلك كان تصنعا لكن طبعا حقيقيا واختيارا لأدخل فيه، ولا يرون سواه ولا يقولون في طي عقدهم بغيره. وإني لأعرف من كان في

(١٥) جمع مرة "بكسر الميم وتشديد الراء" أي القوة وشدة العقل.
(١٦) (بضم الهاء) والمقصود موضوعات لأحاديثهم الكثيرة.

جيد حبيبه بعض الوقص[١٧] فما استحسن أغيد ولا غيدا بعد ذلك! وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر فما أحب طويلة بعد هذا، وأعرف أيضا من هوى جارية في فمها فوه لطيف فلقد كان يقتدر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة.. وما أصف عن منقوصي الحظوظ في العلم والأدب، ولكن عن أوفر الناس قسطا في الإدراك، وأحقهم باسم الفهم والدراية.

ودعني أخبرك أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس! أو على صورة الحسن نفسه! وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت. لا تؤاتيني نفسي على سواه ولا تحب غيره البتة. وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله.

وأما جماعة خلفاء بني مروان – رحمهم الله – ولاسيما ولد الناصر منهم، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة، لا يختلف في ذلك منهم مختلف. وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر إلى الآن، فما منهم إلا أشقر، نزاعا إلى أمهاتهم، حتى قد صار ذلك فيهم خلقة، حاشا سليمان الظافر رحمه الله، فإني رأيته أسود اللمة[١٨] واللحية وليس العجب فيمن أحب قبيحا ثم لم يصحبه ذلك في سواه فقد وقع من ذلك، ولا فيمن طبع مذ كان على تفضيل الأدنى.

---

(١٧) اعوجاج.
(١٨) بكسر اللام الشعر يلم بالمنكب وهو مجتمع رأس العضد والكتف.

ولكن فيمن كان ينظر بعين الحقيقة ثم غلب عليه هوى عارض بعد طول بقائه في الجماعة، فأحاله عما عهدته نفسه حوالة صارت له طبعا. وذهب طبعه الأول وهو يعرف فضل ما كان عليه أولا. فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبى إلا الأدنى! فأعجب لهذا التغلب الشديد والتسلط العظيم. وهو أصدق المحبة حقا لا من يتحلى بشيم قوم ليس منهم، ويدعى غريزة لا تقبله فيزعم أنه يتخير من يحب. أما شغل الحب بصيرته، وأجاح[١٩] فكرته، وأجحف بتمييزه، لحال بينه وبين التخيل والارتياد، وفي ذلك أقول:

منهم فتى كان في محبوبه وقص — كأنما الغيد في عينيه جنان
وآخر كان في محبوبه فوه — يقول حسبي في الأفواه غزلان
وثالث كان في محبوبه قصر — يقول إن ذوات الطول غيلان

وأقول أيضا:

يعيبونها عندي بشقرة شعرها — فقلت لهم هذا الذي زانها عندي
وهل عاب لون النرجس الغض عائب — ولون النجوم الزاهرات على البعد
وأبعد خلق الله من كل حكمة — مفضل جرم فاحم اللون مسود
به وصفت ألوان أهل جهنم — ولبسة باك مثكل الأهل محتد
ومذ لاحت الرايات سوادا تيقنت — نفوس الورى لا سبيل إلى الرشد

(١٩) أهلك أو استأصل.

التعريض بالقول

ولا بد لكل مطلوب من مدخل إليه، وسبب يتوصل به نحوه، فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة إلا العليم الأول جل ثناؤه؛ فأول ما يستعمل طلاب الوصل وأهل المحبة في كشف ما يجدونه إلى أحبتهم التعريض بالقول: إما بإنشاد شعر، أو بإرسال مثل، أو تعمية بيت، أو طرح لغز، أو تسليط كلام.

والناس يختلفون في ذلك على قدر إدراكهم، وعلى حسب ما يرونه من أحبتهم من نفار أو أنس أو فطنة أو بلادة، وإني لأعرف من ابتدأ كشف محبته إلى من كان يحب بأبيات قلتها، فهذا وشبهه ليبتدئ به الطالب للمودة، فإن رأى أنسا وتسهيلا زاد، وأن يعاين شيئا من هذه الأمور في حين إنشاده لشيء مما ذكرناه، أو إيراده لبعض المعاني التي حددنا، فانتظاره الجواب إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات، لموقف بين الرجاء واليأس هائل، وإن كان حينا قصيرا، ولكنه إشراف على بلوغ الأمل أو انقطاعه.

ومن التعريض بالقول: جنس ثان ولا يكون إلا بعد الاتفاق ومعرفة المحبة من المحبوب، فحينئذ يقع التشكي وعقد المواعيد والتغرير وإحكام المودات بالتعريض وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غير ما يذهبان إليه، فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى إلى المقصود بالكلام، على حسب ما يتأدى إلى سمعه ويسبق إلى وهمه، وقد فهم كل واحد

منهما عن صاحبه وأجابه بما لا يفهمه غيرهما، إلا من أيد بحس نافذ، وأعين بذكاء، وأمد بتجربة، ولاسيما أن أحس من معانيهما بشيء.. وقلما يغيب عن المتوسم المجيد، فهنالك لا خفاء عليه فيما يريدان.

وأنا أعرف فتى وجارية كانا يتحابان، فأرادها في بعض وصلها على بعض ما لا يجمل؛ فقالت: "والله لأشكونك في الملأ علانية ولأفضحنك فضيحة مستورة". فلما كان بعد أيام حضرت الجارية مجلس بعض أكابر الملوك وأركان الدولة وأجل رجال الخلافة، وفيه ممن يتوقى أمره من النساء والخدم عدد كثير، وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى، لأنه كان بسبب من الرئيس، وفي المجلس مغنيات غيرها. فلما انتهى الغناء إليها سوت عودها واندفعت تغني بأبيات قديمة.

غـزال قـد حكـى بـدر التمـام　　كشمس قد تجلت من غمام
صـبى قلبـي بألحـاظ العـراض　　وقد الغصن في حسن القوام
خضعت خضوع صب مستكين　　لـه وذلـت ذلـة مسـتهام
فصـلني يـا فـديتك فـي حـلال　　فمـا أهـوى وصـالا فـي حـرام

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت:

عتـاب واقـع وشـكاة ظلـم　　أتـت مـن ظـالم حكـم وخصـم
فشـكت مـا بهـا لـم يـدر خلـق　　سوى المشكو ما كانت نسمي

الإشارة بالعين

ثم يتلو التعريض بالقول – إذا وقع القبول والموافقة – الإشارة بلحظ العين، وإنه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود، ويبلغ المبلغ العجيب ويقطع به ويتواصل ويوعد ويهدد وينتهر ويبسط، ويؤمر وينهى، وتضرب به الوعد وينبه على الرقيب، ويضحك ويحزن ويسأل ويجيب ويمنع ويعطي.

ولكل واحد من هذه المعاني ضرب من هيئة اللحظ لا يوقف على تحديده إلا بالرؤية. ولا يمكن تصويره ولا وصفه إلا بالأقل منه، وأنا واصف ما تيسر من هذه المعاني؛ فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر، وتفتيرها(٢٠) إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف. وكسر نظرها آية الفرح. والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه.. والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتيهما سؤال، وقلب الحدقة من وسط العين إلى الموق(٢١) بسرعة شاهد المنع. وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام، وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة.

واعلم أن العين تنوب عن الرسل، ويُدرك بها المراد، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة

---

(٢٠) من فتر: بمعنى كسر أو ضعف.
(٢١) الموق: موق العين مؤخرها.

وأوعاها، وهي رائد النفس الصادق ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات. وقد قيل: ليس المخبر كالمعاين، وقد ذكر ذلك أفليمون صاحب الفراسة وجعلها معتمدة في الحكم.

وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعها شعاعا مجلوا صافيا إما حديدا مصقولا أو زجاجا أو ماءً. أو بعض الحجارة الصافية أو سائر الأشياء المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص واللمعان، تتصل أقصى حدوده بجسم كثيف ساتر مناع كدر.. انعكس شعاعها فأدرك الناظر نفسه، وهو الذي تراه في المرأة فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك.

ولو لم يكن من فضل العين إلا أن جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكانا، لأنها نورية لا تدرك الألوان بسواها ولا شيء أبعد مرمى ولا أنأى غاية منها لأنها تدرك بها أجرام الكواكب التي تضئ الأفلاك البعيدة، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبعدها، وليس ذلك إلا لاتصالها في طبع حلقتها بهده المرآة، فهي تدركها وتصل إليها بالنظر، لا على قطع الأماكن والحلول في المواضع وتنقل الحركات. وليس هذا الشيء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يدركان إلا بالمجاورة. والسمع والشم لا يدركان إلا من قريب.

ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المصوت قبل سماع الصوت وإن تعمدت إدراكهما معا، وإن كان إدراكهما واحدا لما تقدمت العين السمع.

المراسلة

ثم يتلو ذلك – إذا امتزجا – المراسلة بالكتب، وللكتب آيات، ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون بقطع الكتب وبحلها في الماء وبمحو أثرها، فرُبَّ فضيحة كانت بسبب كتاب، وفي ذلك أقول:

عزيـز علـي اليـوم قطـع كتـابكم ولكنـه لـم يلـف للـود قـاطع

فـآثرت أن يبقـى وداد وينمحـي مداد فإن الفرع للأصل تابع

فكـم مـن كتـاب فيـه ميتـة ربـه ولـم يـدره إذ نمقتـه الأصـابع

وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال، وجنسه أملح الأجناس، ولعمري أن الكتاب للسان في بعض الأحايين، إما لحصر[٢٢] في الإنسان، وإما لحياء، وإما لهيبة. نعم.. حتى إن لوصول الكتاب إلى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية، وإن لرد الجواب والنظر إليه سرورا يعدل اللقاء. ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه! ولعهدي ببعض أهل المحبة ممن كان يدري ما يقول، ويحسن الوصف ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويجيد النظر ويدقق في الحقائق – لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصل قريب الدار آتي المزار.

---

(٢٢) (بفتح الحاء والصاد) أي عي في الكلام وعجز.

ويحكى أنها وجوه اللذة. وأما سقي الحبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه بسقي الحبر بالريق.. وفي ذلك أقول:

جـواب أتـاني عـن كتـاب بعثتـه فسـكن مهتاجـا وهـيج سـاكنا!
سـقيت بـدمع العـين لمـا كتبتـه فعال محب ليس في الود خائنا
فما زال الماء العين يمحو سطوره فيا ماء عيني قد محوت المحاسنا
غـدا بـدموعي أول الخـط بيننـا وأضحى بدمعي آخر الخط بائنا

ولقد رأيت كتاب المحب إلى محبوبه، وقد قطع في يده بسكين له فسال الدم. واستمد منه وكتب به الكتاب أجمع! ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت فيه.

السفير

ويقع في الحب بعد هذا – بعد حلول الثقة وتمام الاستئناس – إدخال السفير. ويجب تخيره وارتياده واستجادته واستفراهه[٢٣] فهو دليل عقل المرء. وبيده حياته وموته، وستره وفضيحته – بعد الله تعالى – فينبغي أن يكون الرسول ذا هيئة، صادقا يكتفي بالإشارة، ويقرطس عن الغائب ويحس من ذات نفسه ويضع من عقله ما أغفله باعثه ويؤدي إلى الذي أرسله كل ما يشاهد على وجهه كأنما كان للأسرار حافظا، وللعهد وفيا قنوعا ناصحا. ومن تعدى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقصه منها.

وأكثر ما يستعمل المحبون، في إرسالهم إلى من يحبونهم، إما خاملا لا يؤبه له ولا يهتدى للتحفظ منه، لصباه أو لهيئة رثة أو بدادة في طلعته. وإما جليلا لا تلحقه الظنون، لنسك يظهره، أو لسن عالية قد بلغها. وما أكثر هذا في النساء ولاسيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثوبين الأحمرين! وإني لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأيتها. أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص فمن النساء كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصناع في الغزل والنسيج، وما أشبه ذلك.

---

(٢٣) أي اختياره حاذقا.

أو ذو قرابة من المرسل إليه لا يشح بها عليه، فكم منيع سهل بهذه الأوصاف وعسير يسر وبعيد قرب، وجموح آنس. وكم داهية دهت الحجب المصونة والأستار الكثيفة والمقاصير المحروسة والسدد المضبوطة لأرباب هذه النعوت ولولا أن نبه علي لذكرتها، ولكن لقطع النظر فيها وقلة الشقة بكل واحد والسعيد من وعظ بغيره. وبالضد تتميز الأشياء. أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره! ولا أزال عن الجميع ظل العافية! وإني لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة! ويعقد الكتاب في جناحها. وفي ذلك أقول قطعة منها!

تخيرها نوح فما خاب ظنه لديها وجاءت نحوه بالبشائر

سأودعها كتبي إليك فهاكها رسائل تهدى في قوادم طائر

ومن بعض صفات الكتمان باللسان، وجحود المحب إن سئل، والتصنع بإظهار الصبر، وأن يرى أنه عزهاة[٢٤] خلى. ويأبى السر الدفين، ونار الكلف المتأججة في الضلوع، إلا ظهورا في الحركات والعين، ودبيبا كدبيب النار في الفحم، والماء في يبيس المدر[٢٥] وقد يمكن التمويه في أول الأمر على غير ذي الحس اللطيف. وأما بعد استحكامه فمحال، وربما يكون السبب في الكتمان تصاون المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة. فيفر منها ويتفادى.

وما هذا وجه التصحيح، فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه. إذ القلوب بيد مقلبها، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعقد الصحيح باليقين وأما المحبة فحلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة،

وفي ذلك أقول:

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى	وسيان عندي فيك لاح وساكت
يقولون جانبت التصاون جملة	وأنت عليهم بالشريعة قانت

(٢٤) أي لا يميل إلى النساء واللهو.
(٢٥) الطين.

فقلــت لهــم هــذا الريــاء بعينــه صــراحا وزى للمــرائين ماقــت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد وهل منعه في محكم الذكر ثابت
إذا لــم أواقــع محرمــا أتقــي بــه مجيئي يوم البعث والوجه باهت
وهــل يلــزم الإنســان إلا اختيــاره وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت

وإني لأعرف بعض من امتحن بشيء من هذا فسكن الوجد بين جوانحه، فرام جحده إلى أن غلظ الأمر. وعرف ذلك في شمائله من تعرض للمعرفة ومن لم يتعرض، وكان من عرض له بشيء نهجه[٢٦] وقبحه. إلى أن كان من أراد الحظوة لديه من إخوانه بوهمه تصديقه في إنكاره وتكذيب من ظن به غير ذلك، فسر بهذا. ولعهدي به يوما قاعدا ومعه بعض من كان يعرض له بما في ضميره. وهو ينتفي غاية الانتفاء.. إذ اجتاز بهما الشخص الذي كان يتهم بعلاقته فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى، واصفر لونه، وتفاوتت معاني كلامه بعد حسن تثقيف. فقطع كلامه المتكلم معه. فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره. فقيل له: ما عدا عما بدا، فقال: هو ما تظنون.. عذر من عذر وعذل من عذل! ففي ذلك أقول شعرا:

دمــــوع الصــــب تنســــفك وســـتر الصـــب ينتهـــك
كــــان القلــــب إذ يبــــدو قطــــاة ضــــمها شــــرك

---

(٢٦) أي رده ردا قبيحا.

فيـــا أصـــحابنا قولـــوا فـــإن الـــرأي مشـــترك
إلـــى كـــم ذا أكاتمـــه ومـــا لـــي عنـــه متـــرك

وهذا إنما يعرض عند مقاومة طبع الكتمان، والتصاون لطبع المحب وغلبته، فيكون صاحبه متحيرا بين نارين محرقتين.وربما كان سبب الكتمان إبقاء المحب على محبوبه، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع، وفي ذلك أقول:

درى النـاس أنـي فتـى عاشـق كئيـب معنـي، ولكـن بمـن؟
يقولـــون بـــالله ســـم الـــذي نفى حبه عنك طيب الوسن
وهيهـــات دون الـــذي حـــاولوا ذهاب العقول وخوض الفتن
فهـم أبـدا فـي اختلاج الشـكوك يظـن كقطـع وقطـع كظـن!

وربما كان سبب الكتمان توقي المحب على نفسه، من إظهار أمره لجلالة قدر المحبوب. ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعرا تغزل فيه بصبح أم المؤيد رحمه الله، فغنت به جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبي عامر ليبتاعها فأمر بقتلها!

وعلى مثل هذا قتل أحمد بن مغيث، واستئصال آل مغيث والتسجيل عليهم ألا يستخدم بواحد منهم أبدا حتى كان سببا لهلاكهم وانقراض بيتهم. فلم يبق منهم إلا الشريد الضال، وكان سبب ذلك تغزله بإحدى بنات الخلفاء. ومثل هذا كثير

ويحكى عن الحسن بن هانئ أنه كان مغرما بحب محمد بن هارون المعروف بابن زبيدة، ولما أحس منه ببعض ذلك انتهره على إدامة النظر إليه. فذكر عنه أنه قال أنه كان لا يقدر أن يديم النظر إلا مع غلبه السكر على ابن زبيدة، وربما كان سبب الكتمان ألا ينفر المحبوب أو ينفر به؛ فإني أدري من كان محبوبه له سكنا وجليسا، لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان منه مناط الثريا قد تعلت نجومها وهذا ضرب من السياسة. ولقد كان يبلغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغاية وأبعد النهاية. فما هو إلا أن باح إليه بما يجد، فصار لا يصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالة الحب وتمنع الثقة بملك الفؤاد. وذهب ذلك الانبساط ووقع التصنع والتجني فكان أخا فصار عبدا! ونظيرا فعاد أسيرا ولو زاد في بوحه شيئا إلى أن يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه إلا في الطيف، ولانقطع القليل والكثير، ولعاد ذلك عليه بالضرر.

وربما كان من أسباب الكتمان الحياء الغالب على الإنسان أوان يرى المحب من محبوبه انحرافا وصدا، ويكون ذا نفس أبية فيستتر بما يجد لئلا يشمت به عدو، أو يريهم ومن يحب هوان ذلك عليه.

الإذاعة

وقد تعرض في الحب الإذاعة وهو من منكر ما يحدث من أعراضه ولها أسباب منها:

أن يريد صاحب هذا الفعل أن يتزيا بزى المحبين ويدخل في عدادهم. وهذه خلافة لا ترضى وتخليج بغيض. ودعوى في الحب زائفة.

وربما كان من أسباب الكشف غلبة الحب وتسور الجهر على الحياء. فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفا ولا عدلا. وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكمه في العقل حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح، والقبيح في هيئة الحسن. وهنالك يرى الخير شرا والشر خيرا. وكم من مصون الستر، مسبل القناع، مسدول الغطاء قد كشف الحب ستره وأباح حريمه وأهمل حماه فصار بعد الصيانة علما وبعد السكون مثلا. وأحب شيء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره. ولطالت استعاذته منه. فسهل ما كان وعرا وهان ما كان عزيزا، ولان ما كان شديدا.

ولعهدي بفتى، من سروات الرجال وعلية إخواني، قد دهي بمحبة جارية مقصورة هام بها وقطعه حبها عن كثير من مصالحه وظهرت آيات هواه لكل ذي بصر إلى أن كانت هي تعذله على ما ظهر منه مما يقوده إليه هواه.

وحدثني موسى بن عاصم بن عمرو قال: "كنت بين يدي أبي الفتح والدي رحمه الله وقد أمرني بكتاب أكتبه، إذ لمحت عيني جارية كنت أكلف

بها. فلم أملك نفسي ورميت الكتاب عن يدي وبادرت نحوها وبهت أبي وظن أنه عرض واعتذرت بأنه غلبني الرعاف".

واعلم أن هذا داعية نفار المحبوب وفساد في التدبير، وضعف في السياسة. وما شيء من الأشياء إلا وللمأخذ فيه سنة وطريقة متى تعداها الطالب، أو خرق في سلوكها، انعكس عمله عليه. وكان كده عناء وتعبه هباء، وبحثه وباء. وكلما زاد عن وجه السيرة انحرافا، وفي تجنبها إغراقا، وفي غير الطريق إيغالا ازداد عن بلوغ مراده بعدا.

ومن أسباب الكشف وجه ثالث هو عند أهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط، وذلك أن يرى المحب من محبوبه غدرا أو مللا أو كراهة، فلا يجد طريق الانتصاف منه إلا ما ضرره عليه أعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار. وهذا أشد العار وأقبح الشنار وأقوى بشواهد عدم العقل ووجوه السخف.

وربما كان الكشف من حديث ينتشر وأقاويل تفشو، توافق قلة مبالاة من المحب بذلك ورضى بظهوره سره. إما لإعجاب وإما لاستظهار على بعض ما يؤلمه. وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخواني من أبناء القواد. وقرأت في بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه ويجاهر ويعلن وينوه بذكرهن، ولا أدري ما معنى هذا على أنه يذكر عنهن العفاف وأي عفاف مع امرأة أقصى مناها وسرورها الشهرة في هذا المعنى؟!

الطاعة

ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه وصرفه طباعه قسرا إلى طباع من يحبه. وربما يكون المرء شرس الأخلاق صعب الشكيمة، جموح القياد، ماضي العزيمة حمي الأنف، أبي الخسف[٢٧]. فما هو الآن أن يتنسم نسيم الحب، ويتوسط غمره ويعوم في بحره فتعود الشراسة لينا، والصعوبة سهلة، والمضاء كلالة، والحمية استسلاما.

وفي ذلك أقول قطعة منها:

فهـــل للوصــــال إلينـــا معــــاد وهل لتصاريف ذا الدهر حد

فقد أصبح السيف عبد القضيب وأضحى الغزال الأسير الأسد

وأقول:

على أن قتلى في هواك لذاذة فيا عجبا من هالك متلذذ!

وربما كان المحبوب كارها لإظهار الشكوى متبرما بسماع الوجد. فترى المحب حينئذ يكتم حزنه ويكظم أسفه وينطوي على علته، وإن الحبيب متجن فعندما يقع الاعتذار عند كل ذنب والإقرار بالجرمية، والمرء منها برئ تسليما لقوله وتركا لمخالفته! وإني لأعرف من دهي بمثل هذا فما كان ينفك من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له! وإيقاع العتاب عليه والسخط وهو نقي الجلد.

---

(٢٧) الخسف بمعنى لا يرضى الذل والهوان.

ولا يقولن قائل أن صبر المحب على ذلة المحبوب دناءة في النفس فقد أخطأ، وقد علمنا أن المحبوب ليس له كفوا ولا نظيرا فيقارض بأذاه! وليس سبه وجفاه مما يعير به الإنسان ويبقى ذكره على الأحقاب، ولا يقع في مجالس الخلفاء ولا في مقاعد الرؤساء.

فيكون الصبر جارا للمذلة وضراعة قائدة للاستهانة، فقد ترى الإنسان يكلف بأمته التي يملك رقها، ولا يحول حائل بينه وبين التعدي عليها، فكيف الانتصار منها. وسب الامتعاض من السبب غير هذه.. إنما ذلك بين علية الرجال الذين تحصل أنفاسهم وتتبع معاني كلامهم. فتوجه لها الوجوه البعيدة، لأنهم لا يوقعونها سدى ولا يلقونها هملا. وأما المحبوب فيجفو ويرضى متى شاء لا لمعنى! وفي ذلك أقول:

ليس التذلل في الهوى يستنكر ... فالحب فيه يخضع المستكبر
لا تعجبوا من ذلتي في حالة ... قد ذل فيها قبلي المستبصر
ليس الحبيب مماثلا ومكافيا ... فيكون صبرك ذلة إذ تصبر
تفاحة وقعت فألم وقعها ... هل قطعها منك انتصارا يذكر

وكانت لسعيد بن منذر بن سعيد صاحب الصلاة في جامع قرطبة أيام الحكم المستنصر بالله جارية يحبها حبا شديدا فعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها. فقالت له ساخرة به:.

– إن لحيتك استبشع عظمها فإن حذفت منها... كان ما ترغبه!..

فأعمل الحجلين فيها حتى لطفت!.. ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها، ثم خطبها إلى نفسه، فلم ترض!..

ومن عجيب طاعة المحب لمحبوبه أني أعرف من كان سهر الليالي الكثيرة ولقي الجهد الجاهد فقطعت قلبه ضروب الوجد. ثم ظفر بمن يحب وليس به امتناع ولا عنده دفع. فحين رأى منه بعض الكراهة لما نواه تركه وانصرف عنه، لا تعففا ولا تخوفا، ولكن توقفا عند موافقته رضاه ولم يجد من نفسه معينا على إتيان ما لم ير له إليه نشاطا وهو يجد ما يجد.

ولقد سألني يوما أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان أيام كوني بالمدينة – وكان طويل اللسان جدا مثقفا للسؤال في كل فن – فقال لي وقد جرى بعض ذكر الحب ومعانيه! إذا كره من أحب لقائي وتجنب قربي فما أصنع؟ فقلت أرى أن تسعى في إدخال الروح[٢٨] على نفسك بلقائه وإن كره، قال: "ولكني لا أرى ذلك بل أوثر هواه على هواي ومراده على مرادي وأصبر ولو كان في ذلك الحتف" قلت إني إنما أحببته لنفسي ولالتذاذها بصورته فأنا أتبع قياسي وأقود أصلي وأقفو طريقتي في الرغبة في سرورها".. قال: "هذا ظلم من القياس، أشد من الموت ما تمنى له الموت وأعز من النفس ما بذلت له النفس".. قلت: "إن بذلت نفسك لم يكن اختيارا بل اضطرارا ولو أمكنك إلا تبذلها لما بذلتها! وتركك لقاءه اختيارا منك أنت فيه ملوم لإضرارك بنفسك وإدخالك الحتف عليها". قال: "أنت رجل جدلي، ولا

(٢٨) بفتح الراء المشددة وتسكين الواو- أي الراحة.

جدال في الحب يلتفت إليه" قلت: "إذا كان صاحبه مؤوفا [٢٩]". قال: "وأي آفة أعظم من الحب!"

وربما اتبع المحب شهوته وركب رأسه فبلغ شفاءه من محبوبه، وتعمد مسرته منه على كل الوجوه، سخط أو رضى. ومن ساعده على الوقت هذا وثبت جنانه وأتيحت له الأقدار استوفى لذته جميعها، وذهب غمه وانقطع همه ورأى أمله وبلغ مرغوبه.

---

(٢٩) المؤون الذي به آفة.

العاذل

وللحب آفات! فأولها العاذل! والعذال أقسام!!. فأصلهم صديق قد أسقطت مئونة التحفظ بينك وبينه فعذله أفضل من كثير المساعدات. وهي من الحظ والنهي. وفي ذلك زاجر للنفس عجيب. وتقوية لطيفة لها عرض وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة ولاسيما إن كان رفيقا في قوله، حسن للتوصل إلى ما يرد من المعاني بلفظه، عالما بالأوقات التي يؤكد فيها النهي، وبالأحيان التي يزيد فيها الأمر. والساعات التي يكون فيها وقفا بين هذين، على قدر ما يرى من تسهيل العاشق وتوعره وقبوله وعصيانه.

ثم عاذل زاجر، لا يفيق أبدا من الملامة، وذلك خطب شديد وعبء ثقيل. ووقع لي مثل هذا، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يشبهه. وذلك أنا أبا السرى عمار بن زياد صديقنا أكثر من عذلي على نحو نخوته، وأعان على بعض من لامني في ذلك الوجه أيضا. وكنت أظن أنه سيكون معي مخطئا كنت أو مصيبا، لوكيد صداقتي وصحيح أخوتي به.

ولقد رأيت من اشتد وجده وعظم كلفته حتى كان العذل أحب شيء إليه. ليرى العاذل عصيانه ويستلذ مخالفته ويحصل مقاومته للائمه وغلبته إياه. كالملك الهازم لعدوه والمجادل الماهر الغالب لخصمه.

ويسر بما يقع منه في ذلك. وربما كان هذا المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل. وفي ذلك أقول أبياتا منها:

أحــب شــيء إلــي اللــوم والعــذل   كي أسمع اسم الذي ذكراه لي أمل
كــأنني شــارب بالعــذل صــافية   وباســم مــولاي بعــد الشــرب انتقــل

الصديق المساعد

ومن الأسباب المتمناة في الحب أن يهب الله عز وجل للإنسان صديقا مخلصا، لطيف القول، بسيط الطول، حسن المأخذ، دقيق المنفذ، متمكن البيان، مرهف اللسان، جليل الحلم، واسع العلم، قليل المخالفة، عظيم المساعفة، شديد الاحتمال، صادرا على الإدلال، جم الموافقة، جميل المخالفة، مستوي المطابقة، محمود الخلائق، مكفوف البوائق[٣٠] محتوم المساعدة، كارها للمباعدة نبيل المداخل، مصروف الغوائل، غامض المعاني، عارفا بالأماني، طيب الأخلاق، سري الأعراق، مكتوم السر، كثير البر، صحيح الأمانة، مأمون الخيانة، كريم النفس، نافذ الحس، صحيح الحدس، مضمون العون، كامل الصون، مشهور الوفاء، ظاهر الغناء، ثابت القريحة، مبذول النصيحة، مستيقن الوداد، سهل الانقياد، حسن الاعتقاد، صادق اللهجة، خفيف المهجة، عفيف الطباع، رحب الذراع، واسع الصدر، متخلقا بالصبر، يألف الإمحاض[٣١] ولا يعرف الإعراض، يستريح إليه ببلابله، ويشاركه في خلوة فقره، ويفاوضه في مكتوماته، وأن فيه للمحب لأعظم الراحات.

وأين هذا؟ فإن ظفرت به يداك فشدهما عليه شد الضنين! وامسك بهما إمساك البخيل، وصنه بطارفك وتالدك، فمعه يكمل الأنس! وتنجلي الأحزان، ويقصر الزمان، وتطيب الأحوال.

---

(٣٠) جمع بائقة بمعنى غائلة أو شر.
(٣١) الأمحاض من محض بمعنى أخلص.

ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عونا جميلا، ورأيا حسنا، ولذلك اتخذ الملوك الوزراء والدخلاء كي يخففوا عنهم بعض ما حملوه من شديد الأمور، وطوقوه من باهظ الأحمال، ولكي يستغنوا بآرائهم ويستمدوا بكفاياتهم، وإلا فليس في قوة الطبيعة أن تقاوم كل ما يرد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها.

ولقد كان بعض المحبين — لعدمه هذه الصفة من الإخوان، وقلة ثقته منهم لما جربه من الناس— أقام الوحدة مقام الأنس، وكان ينفرد في المكان النازح عن الأنيس ويناجي الهوى، ويكلم الأرض ويجد في ذلك راحة كما يجد المريض في التأوه، والمحزون في الزفير، فإن الهموم إذا ترادفت في القلب ضاق بها، فإن لم يفض منها شيء باللسان ولم يسترح إلى الشكوى، لم يلبث أن يهلك غما ويموت أسفا.

وما رأيت الإسعاد أكثر منه في النساء، فعندهن من المحافظة على هذا الشأن والتواصي بكتمانه والتواطؤ على طيه إذا أطلعن عليه ما ليس عند الرجال، وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهي عند النساء ممقوتة مستثقلة، وإنه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات، لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير، وهذا لا يكون إلا في الندرة، وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الإشفاق محضا إلى غيرهن.

وإني لأعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم، فشاع على إحدى جواريها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها، وأن بينهما معان مكروهة، وقيل لها: "إن جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جلية أمرها"، فأخذتها – وكانت غليظة العقوبة – فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء ما لا يصبر على مثله جلداء الرجال، رجاء أن تبوح لها بشيء، مما ذكر لها، فلم تفعل البتة.

وإني لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عز وجل، ناسكة مقبلة على الخير، وقد ظفرت بكتاب لفتى إلى جارية كان يكلف بها، وكان في غير ملكها، فعرفته الأمر فرام الإنكار فلم يتهيأ له ذلك، فقالت له: مالك؟ ومن ذا عصم؟ فلا تبال بهذا، فو الله لا أطلعت على سركما أحدا أبدا، ولو أمكنني أن ابتاعها لك من مالي، ولو أحاط به كله، لجعلتها لك في مكان تصل إليها فيه، ولا يشعر بذلك أحد.

وإنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال وأحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها.. سعيها في تزويج يتيمة، وإعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة، وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء إلا من الوصال ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتآلف ووجوهه، لا شغل لهن غيره ولا خلقن لسواه! والرجال مقتسمون في كسب المال، وصحبة السلطان، وطلب العلم، وحياطة العيال، ومكابدة الأسفار، والصيد وضروب الصناعات، ومباشرة

الحروب، وملاقاة الفتن، وتحمل المخاوف، وعمارة الأرض، وهذا كله متحيف للفراغ، صارف عن طريق البطل.

وقرأت في سير ملوك السودان إن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها أبد الدهر! لأنهم يقولون: إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال وتحن. ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعمله غيري، لأنني ربيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا وحد الشباب، وهن علمنني القرآن وروينني كثيرا من الأشعار، ودربنني في الخط، ولم يكن همي وإعمال ذهني – منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جدا – إلا تعرف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك، وأنا لا أنسى شيئا مما أراه منهن، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها، وسوء ظن في جهتهن فطرت عليه، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل.

الرقيب

ومن آفات الحب الرقيب. وإنه لحمى باطنة وبرسام[٣٢] ملح، وفكر مكب. والرقباء أقسام: فأولهم مثقل بالجلوس، غير متعمد في مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه، وعازم على إظهار شيء من سرهما والبوح بوجدهما والانفراد بالحديث. ولقد يعرض للمحب من القلق بهذه الصفة ما لا يعرض له مما هو أشد منها. وهذا وإن كان يزول سريعا، فهو عائق حال دنو المراد، وقطع متوفر الرجاء ولقد شاهدت يوما محبين في مكان قد ظنا أنهما انفردا فيه، وتأهبا للشكوى. فاستحليا ما هما فيه من الخلوة. ولم يكن الموضع حمى. فلم يلبثا أن طلع عليهما من كانا يستثقلانه! فرأى فعدل إلي وأطال الجلوس معي، فلو رأيت الفتى المحب وقد تمازج الأسف البادي على وجهه مع الغضب.. لرأيت عجبا! وفي ذلك أقول!

يطيل جلوسا وهو أثقل جالس   ويبدي حديثا لست أرضى فنونه

ثم رقيب قد أحس من أمرهما بطرف وتوجس من مذهبهما شيئا. فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك. فيدمن الجلوس، ويطيل القعود، ويتخفى بالحركات. ويرمق الوجوه، ويحصل الأنفاس. وهذا أعدى من الحرب! وإني لأعرف من هم أن يباطش رقيبا هذه صفته وفي ذلك أقول:

(٣٢) برسام: أي مرض.

مواصل لا يغب[٣٣]قصدا أعظم بهذا الوصال غما!
صار وصرنا لفرط مالا يزول كالاسم والمسمى

ثم رقيب على المحبوب. فذلك لا حيلة فيه إلا بترضية. وإذا أرضي فذلك غاية اللذة. وهذا الرقيب هو الذي ذكرته الشعراء في أشعارها. وقد شاهدت من تلطف في استرضاء رقيب حتى صار الرقيب عليه رقيبا له! ومتغافلا في وقت التغافل ودافعا عنه وساعيا له. وفي ذلك أقول:

ورب رقيب أرقبوه فلم يزل على سيدي عمدا ليبعدني عنه
فما زالت الألطاف تحكم أمره إلى أن غدا خوفي له أمنا منه
خضرة تبعث في النفس الأمل فعاد محبا ما لنعمته كنه

وإني لأعرف من رقب، على بعض من يشفق عليه رقيبا وثق به عند نفسه. فكان أعظم الآفة عليه وأصل البلاء فيه.

وأما إذا لم يكن في الرقيب حيلة، ولا وجد إلى ترضية سبيلا، فلا مطمع إلا بالإشارة بالعين همسا! وبالحاجب أحيانا وبالتعريض اللطيف بالقول. وفي ذلك متعة وبلاغ إلى حين! يقنع به المشتاق.

وأشنع ما يكون الرقيب إذا كان ممن امتحن بالعشق قديما ودهي به، وطالت مدته فيه، ثم عرى عنه بعد إحكامه لمعانيه فكان راغبا في

---

(٣٣) يعب. لا يقل في الزيارة.

صيانة من رقب عليه. فتبارك الله أي بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته، وفي ذلك أقول:

رقيـــب طالمـــا عـــرف الغرامـــا   وقاسى الوجد وامتنـع المناما
ولاقــى فــي الهــوى ألمــا أليمــا   وكـاد الحـب يـورده الحمامـا
وأتقـــن حيلـــة الصـــب المعنـــي   ولـم يضـع الإشـارة والكلامـا
وأعقبـــه التســـلي بعـــد هـــذا   وصار يرى الهوى عارا وذاما
صـــير دون مـــن أهـــوى رقيبـــا   ليبعـد عنـه صـبا مسـتهاما
فـــأي بليـــة صـــبت علينـــا   وأي مصـــيبة حلـــت لمامـــا

ومن طريف معاني الرقباء أني أعرف محبين مذهبهما واحد في حب محبوب واحد بعينه فلعهدي بهما كل واحد منهما رقيب على صاحبه. وفي ذلك أقول:

صـــبان هيمانـــان فـــي واحـــد   كلاهمـا عـن خدنـه منحـرف
كالكلـــب الآري[٣٤] لا يعتلـــف   ولا يخلـي الغيـر أن يعتلـف

---

(٣٤) الآري محبس الدابة.

الواشي

ومن آفات الحب الواشي. وهو على ضربين. أحدهما واش يريد القطع بين المتحابين فقط. على أنه السم الزعاف، والحتف القاصد والبلاء الوارد.. وأكثر ما يكون الواشي فإلى المحبوب، وأما المحب فهيهات شغله بما هو مانع له من استمتاع الواشي. وقد علم الوشاة ذلك، وإنما يقصدون إلى الخلي البال، المتعتب عند أقل سبب.

وإن للوشاة ضروبا من التنقيل فمنها أن يذكر للمحبوب عمن يحب أنه غير كاتم للسر وهذا مكان صعب المعاناة. بطئ البرء إلا أنه يوافق معارضا للمحب في محبته. وهذا أمر يوجب النقار فإنه فرج للمحبوب إلا بأن تساعده الأقدار بالاطلاع على بعض أسرار من يحب. بعد أن يكون المحبوب ذا عقل، وله حظ من تمييز. ثم يدعه والمطاولة، فإذا تكذب عنده نقل الواشي، مع ما أظهر من الجفاء والتحفظ، ولم يسمع لسره أذاعه، علم أنه إنما زور له الباطل، واضمحل ما قام في نفسه.

ولقد شاهدت هذا بعيني لبعض المحبين مع بعض من كان يحب. وكان المحبوب شديد المراقبة عظيم الكتمان. وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت أعلام ذلك في وجهه. وحدث في حب لم يكن، وركبته رحمة، وأظلته فكرة، ودهمته حيرة إلى أن ضاق صدره وباح ما نقل إليه. فلو شاهدت مقام لمحب في اعتذاره لعلمت أن الهوى سلطان مطاع. وبناء

مشدود الأواخي[٣٥] وسنان نافذ، وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف! والإنكار والتوبة! والرمي بالمقاليد فبعد لأي ما صلح الأمر بينهما.

وربما ذكر الواشي أن ما يظهر المحب من المحبة ليست بصحيح وأن مذهبه في ذلك شفاء نفسه وبلوغ وطره. وهذا فصل، وإن كان شديدا في النقل، فهو أيسر معاناة مما قبله. فحالة المحب غير حالة المتلذذ، وشواهد الوجد متفرقة بينهما.

وربما نقل الواشي أن هوى العاشق مشترك وهذه النار المحرقة والوجع الفاشي في الأعضاء، وإذا وافق الناقل لهذه المقالة أن يكون المحب فتى حسن الوجه حلو الحركات مرغوبا فيه مائلا إلى اللذات دنياوي الطبع، والمحبوب امرأة جليلة القدر سرية المنصب، فأقرب الأشياء سعيها في إهلاكه! وتصديها لحتفه! فكم صريع على هذا السبب، وكم من سقي السم فقطع أمعاءه لهذا الوجه. وهذه كانت ميتة مروان بن أحمد بن حدير من قبل قطر الندي جاريته، وفي ذلك أقول محذرا لبعض إخواني قطعة منها:

وهل يأمن النسوان غير مغفل ... جهول لأسباب الردى متأرض[٣٦]

وكم وارد حوضا من الموت أسود ... ترشقه من طيب الطعم أبيض!

---

(٣٥) متين الأساس.
(٣٦) متعرض متصد.

والثاني واش يسعى للقطع بين المحبين لينفرد بالمحبوب ويستأثر به. وهذا أشد شيء وأقطعه وأجزم لاجتهاد الواشي واستفادة جهده.

ومن الوشاة جنس ثالث، وهو واش يسعى بهما جميعا ويكشف سرهم، وهذا لا يلتفت إليه إذا كان المحب مساعدا، وفي ذلك أقول:

عجبت لواش ظل يكشف أمرنا وما بسوى أخبارنا يتنفس
وماذا عليه من عنائي ولوعتي أنا آكل الرمان والولد تضرس

ولا بد أن أورد ما يشبه ما نحن فيه. وإن كان خارجا منه. وهو شيء في بيان التنقيل والنمائم. فالكلام يدعو بعضه بعضا، وما في جميع الناس شر من الوشاة وهم النمامون، وأن النميمة لطبع يدل على نتن الأصل ورداءة الفرع وفساد الطبع وخبث النشأة.

ولا بد لصاحبه من الكذب، والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه وكل نمام كذاب. وقد قال بعض الحكماء: آخ من شئت واجتنب ثلاثة: الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك. والملول فإنه أوثق ما تكون به لطول الصحبة وتأكدها يخذلك. والكذاب فإنه يجني عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل: هل يكون المؤمن بخيلا؟ فقال: نعم. قيل: فهل يكون المؤمن جبانا؟ فقال: نعم. قيل فهل يكون المؤمن كذابا؟ قال: لا. وروى أنه تاه صلى الله عليه وسلم رجل

فقال: يا رسول الله، إني أستتر بثلاث: الخمر، والزنا، والكذب. فمرني أيها أترك. قال: اترك الكذب. فذهب منه. ثم أراد الزنا ففكر قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألني: أزنيت؟ فإن قلت نعم.. حدني، وإن قلت لا.. نقضت العهد. فتركه في الخمر. فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله، إني تركت الجميع!!

الوصل

ومن وجوه العشق الوصل وهو حظ رفيع ومرتبة سرية، ودرجة عالية وسعد طالع. بل هو الحياة المجددة. والعيش السني. والسرور الدائم ورحمة من ألمه عظيمة. ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره، لقلنا أن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه والفرح الذي لا شائبة ولا حزن معه. وكمال الأماني. ومنتهى الأراجي ولقد جربت اللذات على تصرفها وأدركت الحظوظ على اختلافها فما للدنو من السلطان، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة، ولا الأمن بعد الخوف، ولا التروح على المال، من الموقع في النفس ما لموصل! لاسيما بعد طول الامتناع، وحلول الهجر حتى يتأجج الجوى، ويتوقد لهيب الشوق وتنصرم نار الرجاء. وما إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر.. بأحسن من وصل حبيب قد رضيت أخلاقه، وحمدت غرائزه وتقابلت في الحسن أوصافه. وأنه لمعجز السنة البلغاء ومقصر في بيان الفصحاء، وعنده تطيش الألباب وتعزب الأفهام. وفي ذلك أقول:

وسائل لي عمالي من العمر	وقد رأى الشيب في الفودين والعذر[٣٧]
أحبته، ساعة لا شيء أحسبه	عمرا سواها، بحكم العقل والنمر
فقال لي: كيف ذا بينه لي فلقد	أخبرتني أشنع الأنباء والمخبر

(٣٧)فرد الرأس جاناه والعذر شعر اللحية.

فقلت أن التي قلبي بها علق قبلتها قبلة سوما على خطر

فما أعد ولو طالت سني سوى تلك السويعة بالتحقيق من عمري

ومن لذيذ معاني الوصل المواعيد، وإن للوعد المنتظر مكانا لطيفا من شغاف القلب. وهو ينقسم قسمين: أحدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه. والثاني انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه. وإن لمبادئ الوصل وأوائل الإسعاف لتولجا على الفؤاد ليس لشيء من الأشياء. وإني لأعرف من كان ممتحنا بهوى في بعض المنازل المصاقبة فكان يصل متى شاء بلا مانع ولا سبيل إلى غير النظر والمحادثة زمانا طويلا، ليلا متى أحب ونهارا، إلى أن ساعدته الأقدار بإجابة، ومكنته بإسعاد بعد يأسه، لطول المدة، ولعهدي به قد كاد يختلط عقله فرحا! وما كاد يتلاحق كلامه سرورا. فقلت:

فجاد باللثم لي من بعد منعته فاهتاج من لوعتي ما كان مغمورا

كشارب الماء كي يطفي الغليل به فغص فانصاع في الأجداث مقبورا

وإني لأعرف جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء. وهو لا علم عنده، وكثر غمها وطال أسفها إلى أن ضنيت بحبه. وهو بغرارة الصبي لا يشعر. ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياء منه، لأنها كانت بكرا بخاتمها، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدري لعله لا يوافقه. فلما تمادى الأمر – وكانا إلفين في النشأة – شكت ذلك إلى امرأة جزلة الرأي، كانت تثق بها لتوليها تربيتها. فقالت لها: "عرضي له بالشعر"

ففعلت المرة بعد المرة. وهو لا يأبه في كل هذا. إلى أن عيل صبرها وضاق صدرها ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه في بعض الليالي منفردين. ولقد كان، يعلم الله، عفيفا متصاونا بعيدا عن المعاصي. فلما حان قيامها عنه بدرت إليه فقبلته في فمه! ثم ولت في ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة، وهي تتهادى في مشيها —كما أقول في أبيات لي:

كأنهــا حــين تخطــو فــي تأودهــا قضيب نرجسة في الروض مياس
كأنمــا خلــدها فــي قلــب عاشــقها ففيـه مـن وقعهـا خطـر ووسـواس
كأنمــا مشــيها مشــي الحمامــة لا كــد يعــاب ولا بــطء بــه بــأس

... فبهت وأسقط في يده! وفت في عضده. ووجد في كبده، علته وجمة، فما هو إلا أن غابت عنه، ووقع في شرك، واشتعلت في قلبه النار، وتصاعدت أنفاسه وكثر قلقه إلى أرقه، فما أغمض تلك الليلة عينا، وكان هذا بدء بينهما.

ومن الناس من يقول: "إن دوام الوصل يودي بالحب". هذا هجين من القول. إنما ذلك لأهل الملل. بل كلما زاد وصلا زاد اتصالا! ودعني أخبرك أني ما رويت قطرا من ماء الوصل! ولا زادني إلا ظمأ ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى فما وجدتني إلا مستزيدا. ولقد طال بي ذلك فما أحسست ولا أرهقتني قترة.

ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أجل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرا عن مرادي، وغير شاف وجدي، ولا قاض أقل لبانة من لباناتي ووجدتني كلما ازددت دنوا ازددت جوعا! وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي فقلت في ذلك:

وددت بأن القلب شق بمدية! وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري

فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى مقتضى يوم القيامة والحشر

تعيشين فيه ما حييت فإن أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء، وأمنا الوشاة، وسلما من البين، ورغبا عن الهجر، وبعدا عن الملل وفقدا العذال، وتوافقا في الأخلاق، وتكافيا في المحبة، وأتاح الله لهما رزقا ودارا، وعيشا قارا[٣٨]، وزمانا هاديا، وكان اجتماعهما على ما يرضي الرب من الحال، وطالت صحبتهما واتصلت إلى وقت حلول الحمام (بكسر الحاء) الذي لا مرد له ولابد منه. هذا عطاء لم يحصل عليه أحد، وحاجة لم تقض لكل طالب، ولولا أن مع هذه الحال الإشفاق من بغتات المقادير المحكمة في غيب الله عز وجل.. من حلول فراق لم يكتسب، واخترام[٣٩] منية في حال الشباب أو ما أشبه ذلك، لقلت أنها حال بعيدة من كل آفة، وسليمة من كل داخلة، ولقد رأيت من اجتمع له هذا

---

(٣٨) وفيرا كافيا هنيئا.
(٣٩) اخترمهم الضهر: اقتطعهم واستأصلهم.

كله، إلا أنه كان دهي فيمن كان يحبه بشراسة الأخلاق، ودالة على المحبة. فكانا لا يتهنيان العيش، ولا تطلع الشمس في يوم إلا وكان بينهما خلاف فيه! وكلاهما كان مطبوعا بهذا الخلق لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه.. إلى أن دنت النوى بينهما فتفرقا بالموت المرتب لهذا العالم. وفي ذلك أقول:

كيـــف أذم النـــوى وأظلمهـــا وكـل أخـلاق مـن أحـب نـوى

قـد كـان يكفـى هـوى أضـيق بـه فكيف إذ حل بي نوى وهوى

وروى عن زياد بن أبي سفيان رحمه الله، أنه قال لجلسائه: من أنعم الناس عيشة؟ قالوا: أمير المؤمنين، فقال: وأين ما ألقي من قريش؟ فقالوا إذن أنت.. قال وأين ما ألقي من الخوارج والثغور؟ قالوا: فمن أنعم الناس عيلة أيها الأمير؟ قال: رجل مسلم، له زوجة مسلمة، لهما كفاف من العيش. قد رضيت به ورضي بها، لا يعرفنا ولا نعرفه!

وهل فيما وافق إعجاب المخلوقين، وجلا القلوب، واستمال الحواس واستهوى النفوس، واستولى على الأهواء، واقتطع الألباب، واختلس العقول... مستحسن يعدل إشفاق محب على محبوب؟ ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيرا. وأنه لمن المناظر العجيبة الباعثة على الرقة الرائقة المعنى لاسيما إن كان هوى يتكتم به. فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمحبه، وخجلته في الخروج مما وقع فيه الاعتذار، وتوجيهه إلى غير وجهه، وتحيله في استنباط معنى

يقيمه عند جلسائه.. لرأيت عجبا! ولذة مخفية لا تقاومها لذة، وما رأيت أجلب للقلوب ولا أغوص على حياتها ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل. وإن للمحبين في الوصل من الاعتذار ما أعجز أهل الأذهان الذكية والأفكار القوية.

وإني لأعلم فتى وجارية، كان يكلف كل واحد منهما بصاحبه، فكانا يضطجعان إذا حضرهما أحد وبينهما المسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش، ويلتقي رأساهما وراء المسند، ويقبل كل واحد منهما صاحبه ولا يريان! وكأنهما إنما يتمددان من الكلل! ولقد بلغ من تكافئهما في المودة أمرا عظيما، إلى أن كان الفتى المحب ربما استطال عليها وفي ذلك أقول:

ومـــن أعاجيـــب الزمـــان التـــي	طمت على السامع والقائـل
رغبـــة المركـــوب إلـــى راكـــب	وذلـــة المســـئول للســـائل
وطـــول مأســـور إلـــى آســـر	وصـــولة المقتـــول للقاتـــل
مـا أن سـمعنا فـي الـورى قبلهـا	خضـــوع مـــأمول إلـــى آمـــل
هـل هـا هنـا وجـه تـراه سـوى	تواضـــع المفعـــول للفاعـــل

ولقد حدثتني امرأة أثق بها، أنها شاهدت فتى وجارية – كان يجد كل واحد منهما في صاحبه فضل وجد – قد اجتمعا في مكان على طرب. وفي يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه، فجرها جرا زائدا

فقطع إبهامه قطعا لطيفا ظهر فيه دم. وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية لها قيمة. فصرفت يدها ومزقتها وأخرجت منها فضلة شدت بها إبهامه. وأما هذا الفعل للمحب فقليل فيما يجب عليه، وفرض لازم وشريعة مؤداة. وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها.

وأنا أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمي – وعمها كان قاضى الجماعة بقرطبة، وأخوه الوزير ابن محمد ابن الوزير يحيى بن الثغور – وكانت متزوجة بيحيى القائد الذي قتل في واقعة إسحاق. فعاجلته المنية وهما في أغض عيشهما وأنضر سرورهما فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه في دثار واحد ليلة مات! وجعلته آخر العهد به وبوصله. ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها.

وإن للوصل المختلس الذي يخاتل به الرقباء ويتحفظ به من الحضر مثل الضحك المستور والنحنحة وجولان الأيدي، والضغط بالأجناب والقرص باليد والرجل لموقعا من النفس شهيا.

ولقد حدثني ثقة من إخواني – جليل من أهل البيوتات– أنه كان علق في صباه جارية كانت في بعض دور آله. وكان ممنوعا منها فهام عقله بها. قال لي: فتنزهنا يوما إلى بعض ضياعنا بالسهلة غربي قرطبة مع بعض أعمامي. فتمشينا في البساتين وأبعدنا عن المنازل وانبسطنا على الأنهار إلى أن غميت السماء وأقبل الغيث. فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفي الجميع، فأمر عمي ببعض الأغطية، فألقي علي، وأمرها بالاكتنان معي! فظن بما شئت من التمكن على أعين الملأ وهم لا

يشعرون! ويا لك من جمع كخلاء! واحتفال كانفراد! فو الله لا نسيت ذلك اليوم أبدا. ولعهدي به وهو يحدثني بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك وهو يهتز فرحا، على بعد العهد وامتداد الزمن ومن بديع الوصل ما حدثني به بعض إخواني أنه كان في بعض المنازل المصاقبة له هوى. وكان في المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر. فكانت تقف له في ذلك الموضع. وكان فيه بعض البعد. فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها.

فخاطبها مستخبرا لها عن ذلك فأجابته أنه ربما أحس من أمرنا شيء، فوقف لك غيري فسلم عليك فرددت عليه فصح الظن، فهذه علامة بيني وبينك. فإذا رأيت يدا مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدي فلا تجاوب!

وربما استحلى الوصال واتفقت القلوب حتى يقع التخلج في الوصال، فلا يلتفت إلا لائم ولا يستتر من حافظ ولا يبالي بناقل. بل العذل حينئذ يغري!

الهجر

ومن آفات الحب أيضا الهجر وهو على ضروب: فأولها هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر، وإنه لأحلى من كل وصل، فحينئذ نرى الحبيب منحرفا عن محبه مقبلا بالحديث على غيره، معرضا بمعرض لئلا تلحق ظنته أو تسبق استرابته، وترى المحب أيضا كذلك، ولكن طبعه له جاذب، ونفسه له صارفة بالغرم، فتراه حينئذ منحرفا كمقبل، وساكنا كناطق، وناظرا إلى جهة نفسه في غيرها. والحاذق الفطن إذا كشف بوهمه عن باطن حديثهما علم أن الخافي غير البادي، وما جهر به غير نفس الخبر، وإنه لمن المشاهد الجالبة للفتن والمناظر المحركة للسواكن، الباعثة للخواطر، المهيجة للضمائر الجاذبة للفتوة.

ثم هجر بوجه التذلل، وهو ألذ من كثير الوصال، ولذلك لا يكون إلا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه، واستحكام البصيرة في صحة عقده، فحينئذ يظهر المحبوب هجرانا ليرى صبر محبه، وذلك لئلا يصفو الدهر البتة، وليأسف المحب إن كان مفرط العشق عند ذلك، لا لماحل، لكن مخافة أن يترقى الأمر إلى ما هو أجل، يكون ذلك الهجر سببا إلى غيره، أو خوفا من آفة حادث ملل.

ثم هجر يوجبه العتاب الذنب يقع من المحب، وهذا فيه بعض الشدة، لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى يعدل ما مضى فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعادلها لذة، وموقفا من الروح لا

يفوقه شيء من أسباب الدنيا، وهل شاهد مشاهد أو رأت عين أو قام في فكر ألذ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب، وبعد عنه كل بغيض، وغاب عنه كل واش واجتمع فيه محبان قد تصارحا لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلا، وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثم مانع من الإطالة للحديث، فابتدأ المحب في الاعتذار والخضوع والتذلل والأدلة بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف، فطورا يدلي ببراءته، وطورا يرد بالعفو ويستدعي المغفرة ويقر بالذنب ولا ذنب له، والمحبوب في كل ذلك ناظر إلى الأرض يسارقه اللحظ الخفي، وربما أدامه فيه ثم يبسم مخفيا لتبسمه، وذلك علامة الرضى، ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر، ويقبل القول، وامتحت ذنوب الثقل، وذهبت آثار السخط، ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور، ولو كان فكيف ولا ذنب، وختما أمرهما بالوصل الممكن وسقوط العتاب والإسعاد وتفرقا على هذا.

هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديده الألسنة، ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء، وتحكم الوزراء وانبساط مدبري الدول، فما رأيت أشد تبجحا ولا أعظم سرورا بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ووثق بميله إليه وصحة مودته له.

وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غاضب، قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء، ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع، وفي الثانية أذل من الرداء، وألين من القطين، أبادر إلى أقصى غايات التذلل، وأغتنم فرصة الخضوع، وأتحلل بلساني وأغوص على دقائق المعاني ببياني وأفتن القول فتونا، وأتصدى لكل ما يوجب الترضي

والتجني بعض عوارض الهجران وهو يقع في أول الحب وآخره، فهو في أوله علامة لصحة المحبة، وفي آخره علامة لفتورها وباب للسلو، ويقع فيه الهجر والعتاب. ولعمري إن فيه إذا كان قليلا للذة، وأما إذا تفاقم فهو فأل غير محمود، وأمارة وبيئة المصدر وعلامة سوء، وهي بجملة الأمر مطيه الهجران ورائد الصريمة، ونتيجة التجني، وعنوان الثقل ورسول الانفصال، وداعية القلى، ومقدمة الصد، وإنما يستحسن إذا لطف وكان أصله الإشفاق، وفي ذلك أقول:

لعلـك بعـد عتبـك أن تجـودا   بمـا منـه عتبـت وأن تزيـدا

فكـم يومـا رأينـا فيـه صـحوا   وأسـمعنا بـآخره الرعـودا

وعـاد الصـحو بعـد كمـا علمنـا   وأنـت كـذاك نرجـو أن تعـودا

ثم هجر يوجبه الوشاة، وقد تقدم القول فيهم وفيما يتولد من دبيب عقاربهم، وربما كان سببا للمقاطعة البتة.

ثم هجر الملل، والملل من الأخلاق المطبوعة في الإنسان وأحرى لمن دهي به ألا يصفو له صديق، ولا يصح له إخاء، ولا ينبت على عهد، ولا يصبر على إلف، ولا تطول مساعدته لمحب، ولا يعتقد منه ود ولا بغض، وأولى الأمور بالناس ألا يغروه منهم وأن يفروا عن صحبته ولقائه، فلن يظفروا منه بطائل، ولذلك أبعدنا هذه الصفة عن المحبين وجعلناها في المحبوبين، فهم بالجملة أهل التجني والتظني والتعرض للمقاطعة، وأما من تزيا باسم الحب وهو ملول فليس منهم، وحقه ألا يتجرع مذاقه، وينفى عن هذه الصفة ولا يدخل في جملتهم.

وأهل هذا الطبع أسرع الخلق محبة وأقلهم صبرا على المحبوب وعلى المكروه والصد، وانقلابهم على الود على قدر تسرعهم إليه، فلا تثق بملول ولا تشغل به نفسك، ولا تعنها بالرجاء في وفائه. فإن دفعت إلى محبته ضرورة فعده ابن ساعته، واستأنفه كل حين من أحيانه بحسب ما تراه من تلونه، وقابله بما يشاكله.

وما رأيت قط هذه الصفة أشد تغلبا منها على ابن عامر رحمه الله، كان يرى الجارية فلا يصبر عنها، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتي عليه حتى يملكها، ولو حال دون ذلك شوك القتاد، فإذا أيقن بتصيرها إليه عادت المحبة نفارا، وذلك الأنس شرودا، والقلق إليها قلقا

منها، ونزاعه نحوها نزاعا عنها، فيبيعها بأوكس الأثمان، حتى أتلف من عشرات ألوف الدنانير عددا عظيما.

وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحذق والذكاء، والنبل والحلاوة والتوقد، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض، وأما حسن وجهه وكمال صورته فشئ تقف الحدود عنه، ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ويتعمدون الخطور على باب داره لا لشيء إلا للنظر منه. ولقد مات من محبته جوار كن علقن أوهامهن به، ورثين له فخانهن مما أملنه منه، فصرن رهائن البلى وقتلتهن الوحدة، وأنا أعرف جارية منهن كانت تسمى عفراء، عهدي بها لا تتستر بمحبته حيثما جلست، ولا تجف دموعها. ولقد كان رحمه الله يخبرني عن نفسه أنه يمل اسمه!! فضلا عن غير ذلك. وأما إخوانه فإنه تبدل بهم في عمره على قصره مرارا، وكان لا يثبت على زي واحد كأبي براقش، حينا في ملابس الملوك وحينا في ملابس الفتاك!

فيجب على من امتحن بمخالطة من هذه صفته على أي وجه كان، ألا يستفرغ عامة جهده في محبته. وأن يقيم اليأس من دوامه خصما لنفسه، فإذا لاحت له مخايل الملل قاطعه أياما حتى ينشط باله، ويبعد به عنه، ثم يعاوده، فربما دامت المودة مع هذا، وفي ذلك أقول:

لا ترجـــــون ملـــــولا ليس الملـــول بعـــده
ود الملـــــول فدعـــــه عاريــــة مســــتردة

ومن الهجر ضرب يكون متوليه المحب، وذلك عند ما يرى من جفاء محبوبه، والميل عنه إلى غيره، أو لثقل يلازمه فيرى الموت ويتجرع غصص الأسى والعض على نقيف الحنظل[٤٠] أهون من رؤية ما يكره، فينقطع وكبده تنقطع وفي ذلك أقول:

هجرت من أهواه لا عن قلى ... يا عجبا للعاشق الهاجر
لكن عيني لم تطق نظرة ... إلى محيا الرشا[٤١]الغادر
فالموت أحلى مطعما من هوى ... يباح للوارد والصادر!
وفي الفؤاد النار مذكية ... فأعجب لصب جزع صابر
وقد أباح الله في دينه ... تقية المأسور للآسر
وقد أحل الكفر خوف الردى ... حتى ترى المؤمن كالكافر!

ومن عجيب ما يكون فيه وشنيعه، أني أعرف من هام قلبه بمتناء عنه، نافر منه، فقاسى الوجد زمنا طويلا، ثم سنحت له الأيام بسانحة عجيبة من الوصل أشرف بها على بلوغ أمله، فحين لم يكن بينه وبين غاية رجائه إلا كهؤلاء، عاد الهجر والبعد إلى أكثر ما كان قبل، فقلت في ذلك:

كانت إلى دهري لي حاجة ... مقرونة في البعد بالمشتري

---

(٤٠) بمعنى منقوف من نقف الحنظل إذا شقه عن حبه.
(٤١) الغزال.

فســـاقها بـــاللطف حتـــى أنهـــا كانت من القرب على محجر
أبعـــدها عنـــي فعـــادت كـــأن لـــم تبـــد للعـــين ولـــم تظهـــر

ثم هجر القلى، وهنا ضلت الأساطير، ونفدت الحيل وعظم البلاء! وهو الذي خلى العقول ذواهل! فمن دهي بهذه الداهية فليتصدى لمحبوب محبوبه، وليتعمد ما يعرف أنه يستحسنه ويجب أن يتجنب ما يدري أنه يكرهه، فربما عطفه ذلك عليه، إن كان المحبوب ممن يدري قدر الموافقة والرغبة فيه، وأما من لم يعلم قدر هذا فلا طمع في استصرافه، بل حسناتك عنده ذنوب، فإن لم يقدر المرء على استصرافه فليتعمد السلوان وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحرمان، ويسعى في نيل رغبته على أي وجه أمكنه، ولقد رأيت من هذه صفته، وفي ذلك أقول:

مـــا أقـــبح الهجـــر بعـــد وصـــل وأحســـن الوصـــل بعـــد هجـــر
كـــالوفر تحويـــه بعـــد فتـــر والفقـــر يأتيـــك بعـــد وقـــر

الوفاء

ومن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الأخلاق في الحب وغيره، الوفاء. وإنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر.

وأول مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له. وهذا فرض لازم وحق واجب على المحب والمحبوب، لا يحول عنه الأخبيث المحتد لا خلاق له ولا خير عنده.

ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غدر، وهي للمحب دون المحبوب وليس للمحبوب ها هنا طريق ولا يلزمه ذلك، وهي خطة لا يطيقها إلا جلد قوي واسع الصدر حر النفس عظيم الحلم جليل الصبر حصيف العقل ماجد الخلق سالم النية، ومن قابل الغدر بمثله فليس بمستأهل للملامة، ولكن الحال التي قدمنا تفوقها جدا وتفوتها بعدا.

ولقد حدثتني امرأة أثق بها أنها رأت في دار ابن الركيزة جارية رائعة جميلة كان لها مولى فجاءته المنية فبيعت في تركته، فأبت أن ترضى بالرجال بعده وما اتصل بها رجل إلى أن لقيت الله عز وجل، وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ورضيت بالخدمة والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة، وفاء منها لمن قد دثر ووارته الأرض والتأمت عليه الصفائح، ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمها إلى

فراشه مع سائر جواريه ويخرجها مما هي فيه فأبت فضربها غير مرة وأوقع بها الأذى، فصبرت على ذلك كله وأقامت على امتناعها، وأن هذا الوفاء غريب جدا.

واعلم أن الوفاء على المحب أوجب منه على المحبوب، وشرطه له ألزم لأن المحب هو البادي باللصوق، والقاصد لتأكيد المودة، والسابق في ابتغاء اللذة، والمقيد نفسه بزمام المحبة والمحبوب إنما هو مجلوب إليه ومقصود نحوه ومخير في القبول أو الترك، فإن قبل فغاية الرجاء، وإن أبى فغير مستحق الذم.

وللوفاء شروط على المحبين لازمة، فأولها أن يحفظ عهد محبوبه، ويرعي غيبته وتستوي علانيته وسريرته، ويطوي شره وينشر خيره، ويغطي على عيوبه ويحسن أفعاله، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة، ويرضى بما حمله، ولا يكثر عليه بما ينفر منه، وعلى المحبوب أن ساواه في المحبة مثل ذلك، وإن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته، ولا له الاستشاطة عليه بأن يسومه الاستواء معه في درجته، وبحسبه منه حينئذ كتمان خبره، وألا يقابله بما يكره ولا يخيفه به.

وإن كانت الثالثة، وهي السلامة مما يلقي بالجملة. فليقنع بما وجد. وليأخذ من الأمر ما استدف[٤٢] ولا يطلب شرعا، ولا يقترح حقا، وإنما له ما سنح بجده أو حان بكده.

---

(٤٢) سهل وأمكن.

الغدر

وكما أن الوفاء من سرى النعوت ونبيل الصفات فكذلك الغدر من ذميمها ومكروهها، وإنما يمسي غدرا من البادي. وأما المقارض بالغدر على مثله – وإن استوى معه في حقيقة الفعل – فليس بغدر ولا هو معيبا بذلك والله عز وجل يقول: "وجزاء سيئة سيئة مثلها"، وقد علمنا أن الثانية ليست بسيئة، ولكن لما جانست الأولى في الشبه وقع عليها مثل اسمها. ولكثرة وجود الغدر في المحبوب استغرب الوفاء منه! فصار قليلة الواقع منهم يقاوم الكثير الموجود في سواهم وفي ذلك أقول:

قليل وفاء من يهوي يجل وعظم وفاء من يهوى يقل
فنادرة الجبان أجل مما يجئ به الشجاع المستقل

ومن قبيح الغدر أن يكون المحب سفر إلى محبوبه، يستريح إليه بأسراره، فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ويستأثر به دونه. وفيه أقول:

أقمت سفيرا قاصدا في مطالبي وثقت به جهلا فغرب بيننا
وحل عرى ودي وأثبت وده وأبعد عني كل ما كان ممكنا
فصرت شهيدا بعدما كنت مشهدا وأصبحت ضيفا بعدما كان ضيفنا

وقد حدثني القاضي يونس بن عبد الله قال: أذكر في الصبا جارية يهواها فتى، من أهل الأدب من أبناء الملوك، وتهواه ويتراسلان وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتى من أترابه، كان يصل إليها، فلما

عرضت الجارية للبيع أراد الذي كان يحبها فبدر الذي كان رسولا فاشتراها! فدخل عليها يوما فوجدها قد فتحت درجا لها تطلب فيه بعض حوائجها، فأتى إليها وجعل يفتش الدرج فخرج إلى كتاب من ذلك الفتى الذي كان يهواها مضمخا بالغالية مصونا مكرما. فغضب وقال: "من أين هذا يا فاسقة؟" قالت: "أنت سقته إلي؟" قال: "لعله محدث بعد ذلك الحين؟" قالت: "ما هو إلا من قديم تلك التي تعرف!" فكأنما ألقمته حجرا! فسقط في يده وسكت

البين

وقد علمنا أنه لا بد لكل مجتمع من افتراق ولكل دان من ثناء. وتلك عادة الله في العباد والبلاد حتى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وما شئ من دواهي الدنيا يعدل الافتراق. ولو ساءت الأرواح به فضلا عن الدموع كان قليلا! وسمع بعض الحكماء قائلا يقول: "الفراق أخو الموت". فقال: "بل الموت أخو الفراق!"

والبين ينقسم أقساما: فأولها مدة يوقن بانصرامها، وبالعودة عن قريب، وإنه لشجى في القلب وغصة في الحلق. لا تبرأ إلا بالرجعة. وأنا أعلم من كان يغيب من يحبه عن بصره يوما واحدا فيعتريه من الهلع والجزع وشغل البال وترادف الكرب ما يكاد يأتي عليه.

ثم بين منع من اللقاء، وتحظير على المحبوب من أن يراه محبه فهذا – ولو كان من تحبه معك في دار واحدة – فهو بين. لأنه بائن عنك. وإن هذا ليولد من الحزن والأسف غير قليل. ولقد جربناه فكان مرا. وفي ذلك أقول:

أرى دارها في كل حين وساعة	ولكن من في الدار عني مغيب
وهل نافعي قرب الدار وأهلها	على وصلهم مني رقيب ترقب
فيالك جار الجنب أسمع حسه	وأعلم أن الصين أدني وأقرب
كذلك من في اللحد عنك مغيب	وما دونه إلا الصفيح المنصب

ثم بين يتعمده المحب بعدا عن قول الوشاة، وخوفا أن يكون بقاؤه سببا إلى منع اللقاء، وذريعة إلى أن يفشو الكلام فيقع الحجاب الغليظ.

ثم بين يولده المحب لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان وعذره مقبول أو مطرح على قدر الحافز له إلى الرحيل، وإني لأعلم من علق بهوى وكان في حال شظف، وكانت له في الأرض مذاهب واسعة ووجوه منصرف كثيرة، فهان عليه ذلك وآثر الإقامة مع من يحب.

ثم بين رحيل وتباعد ديار، ولا يكون من الأوبة فيه على يقين خبر، ولا يحدث تلاق. وهو الخطب الموجع والهم المفظع والحادث الأشنع والداء الدوي، وأكثر ما يكون الهلع فيه إذا كان النائي هو المحبوب. وهو الذي قالت فيه الشعراء كثيرا، وفي ذلك أقول:

عجبت لنفسي بعده كيف لم تمت   وهجرانه دفني وفقدانه نعيي

وإن للأوبة من البين الذي نشفق منه لطول مسافته، ونكاد قياس من العودة فيه، لروعة تبلغ ما لا حد وراءه وربما قتلت، وفي ذلك أقول:

للتلاقي بعد الفراق سرور   كسرور المفيق حانت وفاته
فرحة تبهج النفوس وتحيي   من دنا منه بالفراق مماته
وبما قد تكون داهية المو   ت وتودي بأهله هجماته
كم رأينا من عب في الماء عطشا   ن فزار الحمام وهو حياته!

وإني لأعلم من نأت دار محبوبه زمنا ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم واستيفائه، حتى دعته نوى ثانية فكاد أن يهلك. وفي ذلك أقول:

أطلت الزمان البعد إذا انقضى ... زمان أنوى بالقرب عدت إلى البعد!
فلم يك إلا كرة الطرف قربكم ... وعاودكم بعدي وعاودني وجدي
كذا حائر في الليل ضاقت وجوهه ... رأى البرق في داج من الليل مسود
فأخلفه منه رجاء دوامه ... وبعض الأراجي لا تفيد ولا تجدي

وفي الأوبة بعد الفراق أقول قطعة منها:

لقد قرت العينان بالقرب منكم ... كما ثخنت أيام يطويكم البعد
فلله فيما قد مضى الصبر والرضى ... ولله فيما قد قضت الشكر والحمد

ويقع في هذين الصنفين من البين الوداع. أعني رحيل المحب أو رحيل المحبوب، وإنه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التي تفتضح فيه عزيمة كل ماضي العزائم. وتذهب قوة كل ذي بصيرة، وتسكب كل عين جمود، ويظهر مكنون الجوي. وهو فصل من فصول البين يجب التكلم فيه، كالعتاب في باب الهجر. ولعمري لو أن ظريفا يموت في ساعة الوداع لكان معذورا إذا تفكر فيما يحل به بعد ساعة من انقطاع الآمال، وحلول الأوجال وتبدل السرور بالحزن، وإنها ساعة ترق القلوب القاسية، وتلين الأفئدة الغلاظ. وإن حركة الرأس وإدمان النظر والزفرة بعد

الوداع لهاتكة حجاب القلب. وموصلة إليه من الجزع بمقدار ما تفعل حركة الوجه في ضد هذا، والإشارة بالعين والتبسم ومواطن الموافقة.

والوداع ينقسم قسمين: أحدهما لا يتمكن فيه إلا بالنظر والإشارة. والثاني يتمكن فيه بالعناق والملازمة، وربما لعله كان لا يمكن قبل ذلك البتة مع تجاور المحال وإمكان التلاقي، ولهذا تمنى بعض الشعراء البين ومدحوا يوم النوى. وما ذاك بحسن ولا بصواب ولا بالأصيل من الرأي: فما يفي سرور ساعة بحزن ساعات فكيف إذا كان البين أياما وشهورا وربما أعواما، وهذا سوء من النظر ومعوج من القياس، وإنما أثنيت على النوى في شعري تمنيا لرجوع يومها فيكون في كل يوم لقاء ووداع.

وهل هجس في الأفكار أو قام في الظنون أشنع وأوجع من هجر عتاب وقع بين محبين، ثم فجأتهما النوى قبل حلول الصلح وانحلال عقدة الهجران، فقاما إلى الوداع وقد نسي العتاب.وجاء ما طم[٤٣] على القوى وأطار الكرى.

وأعرف من أتى ليودع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات، فوقف على آثاره ساعة وتردد في الموضع الذي كان فيه ثم انصرف كئيبا متغير اللون كاسف البال، فما كان بعد أيام قلائل حتى اعتل ومات رحمه الله.

---

(٤٣) زاد أو غلب.

وإن للبين في إظهار السرائر المطوية عملا عجبا، ولقد رأيت من كان حبه مكتوما وبما يجد فيه مستترا حتى وقع حادث الفراق فباح المكنون وظهر الخفي، وفي ذاك أقول قطعة منها:

الآن إذا حل الفراق جدت لي بخفي حب كنت تبدي بخله
فزدتني في حسرتي أضعافها ويحي فهلا كان هذا قبله

ثم بين الموت وهو الذي لا يرجى له إياب، وهو المصيبة الحالة وهو قاصمة الظهر وداهية الدهر وهو الويل، وهو المغطي على ظلمة الليل. وهو قاطع كل رجاء وماحي كل طمع والمؤيس من اللقاء. وهنا حادث الألسن وانجذم[٤٤] حبل العلاج. فلا حيلة إلا الصبر طوعا أو كرها. وهو أجل ما يبتلي به المحبون فما لمن دهي به إلا النوح والبكاء إلى أن يتلف أو يمل، فهي الفرحة التي لا تنكى. والوجع الذي لا يفنى. وهو الغم الذي يتجدد.

وقد رأينا من عرض له هذا كثيرا. وعنى أخبرك أني أحد من دهي بهذه الفادحة وتعجلت له هذه المصيبة، وذلك أني كنت أشد الناس كلفا وأعظمهم حبا بجارية لي. كانت فيما خلا اسمها نعم. وكانت أمنية المتمني وغاية الحسن خَلقا وخُلقا وموافقة لي. وكنا قد تكافأنا المودة. ففجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومر النهار، وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في

([٤٤]) انقطع.

السن. فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها. وعلى ذلك فو الله ما سلوت حتى الآن ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف وببعض أعضاء جسمي العزيزة على مسارعا طائعا. وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها. ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله، وحرم ما كان بعده.

واختلف الناس في أي الأمرين أشد: البين أم الهجر؟ وكلاهما مرتقى صعب وموت أحمر وبلية سوداء وسنة شهباء! وكل يستبشع من هذين ما ضاد طبعه. فأما ذو النفس الأبية الألوف الحنانة، الثابتة على العهد، فلا شيء يعدل عنده مصيبة البين لأنه أتى قصدا وتعمدته النوائب عمدا. فلا يجد شيئا يسلي نفسه ولا يصرف فكرته في معنى من المعاني إلا وجد باعثا على صبابته، ومحركا لأشجانه، وعليه لا له، وحجة لوحده، وحاضا على البكاء على إلفه. وأما الهجر فهو داعية السلو ورائد الإقلاع، وأما ذو النفس التواقة الكثيرة النزوع والتطلع، القلوق العزوف، فالهجر داؤه وجالب حتفه! والبين له مسلاة ومنساة.

وأما أنا فالموت عندي أسهل من الفراق، وما الهجر إلا جالب للكمد فقط، ويوشك إن دام أن يحدث أضرارا. ولقد رأيت من يستعمل هجر محبوبه ويتعمده خوفا من مرارة يوم البين. وما يحدث به من لوعة الأسف عند التفرق. وهذا وإن لم يكن عندي من المذاهب المرضية، فهو حجة قاطعة على أن البين أصعب من الهجر. وكيف لا وفي الناس

من يلوذ بالهجر خوفا من البين. ولم أجد أحدا في الدنيا يلوذ بالبين خوفا من الهجر. وإنما يأخذ الناس أبدا الأسهل ويتكلفون الأهون. وإنما قلنا أنه ليس من المذاهب المحمودة لأن أصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله. وتجرعوا غصة الصبر قبل وقتها، ولعل ما تخوفوه لا يكون وليس من يتعجل المكروه، وهو على غير يقين مما يتعجل بحكيم.

القنوع

ولابد للمحب، إذا حرم الوصل، من القنوع بما يجد، وإن في ذلك لمتعللا للنفس وشغلا للرجاء، وتجديدا للمنى، وبعض الراحة، وهو على مراتب على قدر الإصابة والتمكن. فأولها الزيارة، وإنها لأمل من الآمال، ومن سرى ما يسنح في الدهر مع ما تبدى من الخفر والحياء، لما يعلمه كل واحد منهما مما في نفس صاحبه. وهي على وجهين: أحدهما أن يزور المحب محبوبه، وهذا الوجه واسع، والوجه الثاني أن يزور المحبوب محبه ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر، وفي ذلك أقول:

فإن تنأ عني بالوصال فإنني ... سأرضى لحظ العين إن لم يكن وصل
فحسبي أن ألقاك في اليوم مرة ... وما كنت أرضى ضعف ذا منك لي قبل
كذا همة الوالي تكون رفيعة ... ويرضى خلاص النفس إن وقع العذل

وأما رجع السلام والمخاطبة فأمل من الآمال وإن كنت أنا أقول في قصيدة:

فها أنا ذا أخفي وأقنع راضيا ... برجع سلام إن تيسر في الحين

فإنما هذا لمن ينتقل من مرتبة إلى ما هو أدني منها. وإنما يتفاضل المخلوقات في جميع الأوصاف على قدر إضافتها إلى ما هو فوقها أو دونها، وإني لأعلم من كان يقول لمحبوبه: "عدني وأكذب!" قنوعا بأن يسلي نفسه في وعده وإن كان غير صادق. فقلت في ذلك:

إن كـان وصـلك لـيس فيـه مطمـع		والقـــرب ممنـــوع وأكـــذب
فعســى التعلــل بالتقائــك ممســك		لحيـاة قلـب بالصـدود معـذب
فلقـد يسـلي المجـدبين[٤٥] إذا رأوا		في الأفق يلمع ضوء برق خلب

ومما يدخل في هذا الباب شيء رأيته ورآه غيري معي، رجلا من إخواني جرحه من كان يحبه بمدية، فلقد رأيته وهو يقبل مكان الجرح ويندبه مرة بعد مرة فقلت في ذلك:

يقولـون شـجَّك مـن هِمـت فيـه		فقلـت لعمـري مـا شـجَّني
ولكـــن أحـــس دمـــي قربـــه		فطـــار إليـــه ولـــم ينـــثن
فيـــا قـــاتلي ظالمـــا محســـنا		فـديتك مـن ظـالم محسـن!

ومن القنوع أن يسر الإنسان ويرضى ببعض آلات محبوبه. وإن له من النفس لموقعا حسنا، وإن لم يكن فيه إلا ما قص الله تعالى علينا، من ارتداد يعقوب بصيرا حين شم قميص يوسف عليهما السلام. وفي ذلك أقول:

لمـا منعـت الهجـر مـن سـيد		ولـج في هجري ولـم ينصف
صـــرت بإبصـــاري أثوابـــه		أو بعض ما قد مسه أكتفي
كــذاك يعقــوب نبــي الهــدي		إذا شفه الحزن على يوسف
شـم قميصـا جـاء مـن عنـده		وكـان مكفوفـا فمنـه شـفي

(٤٥) الذين يشكون القحط من تأخر هطول المطر.

وما رأيت قط متعاشقين، إلا وهما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعنبر، مرشوشة بماء الورد، وقد جمعت في أصلها بالمصطكي وبالشمع الأبيض المصفى، ولفت في تطاريف الوشي والخز وما أشبه ذلك، لتكون تذكرة عند البين.

وأخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر، أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية. وذكر أنه كان غاية في الجمال. فشاهده يوما في بعض المتنزهات ماشيا وامرأة خلفه تنظر إليه، فلما أبعد أتت إلى المكان الذي قد أثر فيه مشيه فجعلت تقبله! وتلثم الأرض التي فيها أثر رجله!!. وفي ذلك أقول:

يلومونني في موطئ خفه خطا ولو علموا عاد الذي لام الحسد

فكل تراب واقع فيه رجله فذاك صعيد طيب ليس يجحد

وأقول:

لقد بوركت أرض بها أنت قاطن وبورك من فيها وحل بها السعد

فأحجارها در وسعدانها[٤٦] ورد وأموانها شهد وتربتها ند[٤٧]

ومن القنوع الرضا بمزاز الطيف وتسليم الخيال. وهذا إنما يحدث عن ذكر لا يفارق، وعهد لا يحول، وفكر لا ينقضي، فإذا نامت العيون وهدات الحركات، سرى الطيف وفي ذلك أقول:

---

(٤٦) السعدان نبت من أفضل مراعي الإبل.
(٤٧) نون مفتوحة ودال مشددة بمعنى طيب بكسر الطاء.

زار الخيـال فتـى طالـت صـبابته	على احتفاظ من الحراس والحفظة
فبـت فـي ليلتـي جـذلان مبتهجـا	ولـذة الطيـف تنسـي لـذة اليقظـة!

وأقول:

إني طيف نعم[٤٨]مضجعي بعد هدأة	ولليـــل ســـلطان وظـــل ممـــدد
وعهـدي بهـا تحـت التـراب مقيمـة	وجاءت كما قد كنت من قبل أعهد
فعـــدنا كمـــا كنـــا وعـــاد زماننـــا	كمـا قـد عهـدنا قبـل والعـود أحمـد

وللشعراء في علة مزار الطيف أقاويل بديعة بعيدة المرمى مخترعة، كل سبق إلى معنى من المعاني، فأبو إسحاق بن سيار النظام – رأس المعتزلة – جعل علة مزار الطيف خوف الأرواح من الرقيب المرقب على بهاء الأبدان. وأبو تمام الطائي جعل علته أن نكاح الطيف لا يفسد الحب، ونكاح الحقيقة يفسده.. والبحتري جعل علة إقباله استضاءته بنار وجده وعلة زواله خوف الغرق في دموعه. وأنا أقول، من غير أن أمثل شعري بأشعارهم –فلهم فضل التقدم والسابقة وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون، ولكن اقتداءً بهم، وجريا في ميدانهم، وتتبعا لطريقتهم – أبياتا بينت فيها مزار الطيف:

أغــار عليــك مــن إدراك كفــي	وأشــفق أن يــذيبك لمــس كفــي!
فــأمتنع اللقــاء حــذار هــذا	وأعتمــد التلاقــي حــين أغفــي
فروحـي إن أنـم بـك ذو انفـراد	مــن الأعضــاء مســتتر ومخفــي

(٤٨) بضم النون اسم محبوبته وقد مر ذكر حبه لها ووفائها.

ووصل الروح ألطف فيك وقعا   من الجسم المواصل ألف ضعف!

وحال المزور في المنام ينقسم أقساما أربعة: أحدها محب مهجور. قد تطاول غمه. ثم رأى في هجعته أن حبيبه وصله فسر بذلك وابتهج، ثم استيقظ فأسف وتلهف، حيث علم أن ما كان فيه أماني النفس وحديثها.

والثاني محب مواصل مشفق من تغير يقع، قد رأي في وسنه أن حبيبه يهجره، فاهتم بذلك اهتماما شديدا. ثم هب من نومه فعلم أن ذلك باطل وبعض وساوس الإشفاق.

والثالث محب داني الديار يرى أن التنائي قد فدحه فيكترث ويوجل. ثم ينتبه فيذهب ما به ويعود فرحا. وفي ذلك أقول:

رأيتك في نومي كأنك راحل   وقمنا إلى التوديع والدمع هائل
وزال الكرى عني وأنت معانقي   وغمي إذا عانيت ذلك زائل
فجددت تعنيقا وضما كأنني   عليك من البين المفرق واجل

والرابع محب نائي المزار. يرى أن المزار قد دنا. والمنازل قد تصاقبت. فيرتاح ويأنس إلى فقد الأسى. ثم يقوم من سنته فيرى أن ذلك غير صحيح. فيعود إلى أشد ما كان فيه من الغم. وقد جعلت في بعض قولي علة النوم الطمع في طيف الخيال فقلت:

طاف الخيال إلى مستهتر كلف	لولا ارتقاب مراد الطيف لم ينم

ومن القنوع أن يقنع المحب بالنظر إلى الجدران ورؤية الحيطان التي تحتوي على من يحب، وقد رأينا من هذه صفته. ومن القنوع أن يرتاح المحب إلى أن يرى من رأى محبوبه ويأنس به ومن أتى من بلاده وهذا كثير.

وللشعراء فن من القنوع أرادوا فيه إظهار غرضهم وإبانة اقتدارهم على المعاني الغامضة والمرامي البعيدة، وكل قال على قدر قوة طبعه. إلا أنه تحكم باللسان وتشدق في الكلام واستطال بالبيان، وهو غير صحيح في الأصل؛ فمنهم من قنع بأن السماء تظله هو ومحبوبه والأرض تقلهما ومنهم من قنع باستوائهما في إحاطة الليل والنهار بهما!. وأشباه ذلك. ولي في هذا المعني قول لا يمكن لمتعقب أن يجد بعده متناولا، ولا وراءه مكانا، مع تبيين علة قرب المسافة البعيدة وهو:

وقالوا بعيدا قلت حسبي بأنه	معي في زمان لا يطيق محيدا!
تمر على الشمس مثل مرورها	به كل يوم يستنير جديدا
فمن ليس بيني إلى المسير وبينه	سوى قطع يوم هل يكون بعيدا
وعلم إله الخلق يجمعنا معا	كفى ذا التداني ما أريد مزيدا!

فبينت كما ترى أني قانع بالاجتماع مع من أحب في علم اللهّ الذي السموات والأفلاك والعوالم كلها وجميع الموجودات لا تنفصل منه ولا

تتجزأ فيه ولا يشذ عنه منها شيء، ثم اقتصرت من علم الله تعالى أنه في زمان. وهذا أعم مما قاله غيري في إحاطة الليل والنهار. وإن كان الظاهر واحدا في البادي إلى السامع. ثم بينت أنه وإن كان في أقصى المعمور من المشرق وأنا في أقصى المعمور من المغرب – وهذا طول السكنى – فليس بيني وبينه إلا مسافة يوم! إذا الشمس تبدو في أول النهار في أول المشارق وتغرب في آخر النهار في آخر المغارب.

ومن القنوع فصل أورده – واستعيذ بالله منه!. ومن أهله وأحمده على ما عرف نفوسنا من منافرته – وهو أن يضل العقل جملة! ويفسد القريحة ويتلف التمييز، ويهون الصعب، ويذهب الغيرة ويعدم الأنفة؛ فيرضى الإنسان بالمشاركة فيمن يحب. وقد عرض هذا القوم. أعاذنا الله من البلاء!

وهذا لا يصح إلا مع كلبية في الطبع، وسقوط من العقل، وضعف حسي. يؤيد ذلك كله حب شديد معم؛ فإذا اجتمعت هذه الأشياء وتلاحقت بمزاج الطبائع ودخول بعضها في بعض، نتج بينهما هذا الطبع الخسيس، وتولدت هذه الصفة المرذولة. وقام منها هذا الفعل المقذور القبيح. وأما رجل معه أقل همة وأيسر مروءة فهذا منه أبعد من الثريا، ولو مات وجدا وتقطع حبا.

ولا بد لكل محب صادق المودة، ممنوع الوصل – إما ببين وإما بهجر وإما بكتمان واقع لمعنى – من أن يؤول حد السقام والضنى والنحول، وربما أضجعه ذلك. وهجر الأمر كثير جدا، موجود أبدا. والأعراض الواقعة من المحبة وهجمات العلل ويميزها الطبيب والمتفرس الناقد. وفي ذلك أقول:

يقـول لـي الطبيـب بغيـر علـم تـداو فأنـت يـا هـذا عليـل
ودائـــي لـــيس يدريـــه ســـوائي ورب قـــادر ملـــك جليـــل
فقلــت لــه دوائــي منــه دائــي إلا في مثل ذا ضلت عقـول
وتريــاق الأفــاعي لــيس شــيء سـواه ببـرء مـا لـدغت كفيـل

وحدثني أبو بكر محمد الحجري – وكان حكيم الطبيب عاقلا فهيما – عن رجل من شيوخنا أنه كان ببغداد في خانة من خاناتها. فرأى ابنة لوكيلة الخان فأحبها وتزوجها. فلما خلا بها نظرت إليه، وكانت بكرا، وهو قد تكشف لبعض حاجتها فارتاعت، ففرت إلى أمها وتفادت منه فرام بها كل من حواليها ترد إليه فأبت. وكادت أن تموت! ففارقها ثم ندم. وأن يراجعها فلم يمكنه واستعان بالأبهري وغيره. فلم يقدر أحد على حيلة في أمره فاختلط عقله بها وأقام في المارستان مدة طويلة.. حتى نقه وسلا وما كاد. ولقد كان إذ ذكر يتنفس الصعداء وإني لأعرف

جارية من ذات المناصب والجمال والسرف من القواد. وقد بلغ بها حب فتى من إخواني مبلغ هيجاني الأسود. وكادت تختلط واشتهر الأمر وشاع جدا، حتى تمناه وعلمه الأباعد. إلى أن تدوركت بالعلاج وهذا إنما تولد عن إدمان الفكر، فإذا غلبت الفكرة وتمكن الخلط السوداوي خرج الأمر عن حد الحب إلى حد الوله والجنون.

وإذا أغفل التداوي في الأول إلى المعاناة، قوي جدا ولم يوجد له دواء سوى الوصال، ومن بعض ما كتبت إليه قطعة أقول فيها:

قد سلبت الفؤاد منها اختلاسا ... أي خلق يعيش دون فؤاد

فأغثها بالوصل تحيا شريفا ... وتفز بالوثاب يوم المعاد

وحدثني البلبيني أن سبب اختلاط مروان بن يحيى بن جدير ذهاب عقله اعتلاقه بجارية لأخيه. فمنعها منه وباعها لغيره ولقد كان في أخوته مثله ولا أتم أدبا منه. وأخبرني أبو العافية أن سبب جنون يحيى بن أبي عبدة بيع جارية له كان يجد بها وجدا شديدا. كانت أمه أباعتها، فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدا عقليهما واختلطا وصارا في القيود والأغلال. فأما مروان فأصابته ضربة مخطئة يوم دخول البربر قرطبة، وانتهائهم إليها.

توفي رحمه الله، وأما يحيى فهو حي على حالته المذكورة — في حين كتابتي لرسالتي هذه – وقد رأيته أنا مرارا وجالسته في القصر قبل أن يمتحن بهذه المحنة. وكان أستاذي وأستاذه الفقيه أبو الخيار اللغوي.

وكان يحيى – لعمري – حلوا من الفتيان نبيلا. وأما من دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيرا. ولكن لم نسمهم لخفائهم. وهذه درجة إذا بلغ الشغوف إليها فقد انبت الرجاء وانصرم الطمع. فلا دواء له بالوصل ولا بغيره. إذ قد استحكم الفساد في الدماغ، وتلفت المعرفة، وتغلبت الآفة. أعاذنا الله من البلاء بطوله وكفانا النقم بمنه.

وقد علمنا أن كل ما له أول فلا بد له من آخر! حاشا نعيم الله عز وجل الجنة لأوليائه. وعذابه بالنار لأعدائه. وأما أعراض الدنيا فنافدة فانية وزائلة مضمحلة، وعاقبة كل حب إلى أحد أمرين: إما اخترام منية، وإما سلو حادث.

والسلو ينقسم قسمين: سلو طبيعي وهو المسمى بالنسيان يخلو به القلب ويفرغ به البال، ويكون الإنسان كأنه لم يحب قط. وهذا القسم ربما لحق صاحبه الذم، لأنه حادث عن أخلاق مذمومة، وعن أسباب غير موجبة لاستحقاق النسيان، وربما لم تلحقه اللائمة لعذر صحيح.

والثاني سلو تطبعي: قهر النفس، وهو المسمى بالتصبر، فترى المرء يظهر التجلد، وفي قلبه أشد لدغا من وخز الأشفى[٤٩] ولكنه يرى بعض الشر أهون من بعض. أو يحاسب نفسه بحجة لا تصرف ولا تكسر! وهذا قسم لا يذم آتيه، ولا يلام فاعله، لأنه لا يحدث إلا عن عظيمة، ولا يقع إلا عن فادحة. إما لسبب لا يصبر على مثله الأحرار. وإما لخطب لا مرد له تجري به الأقدار، وكفاك من الموصوف به أنه ليس بناس لكنه ذاكر، وذو حنين واقف على العهد، ومتجرع مرارات الصبر.

---

(٤٩) المثقب "المخراز".

والفرق بين المتصبر والناسي، أنك ترى المتصبر وإن أبدى غاية الجلد وأظهر سب محبوبه والتحمل عليه، لا يحتمل ذلك من غيره. والناس ضد هذا، وكل هذا فعلى قدر طبيعة الإنسان وأجابتها وامتناعها، وقوة تمكن الحب من القلب أو ضعفه.

والأسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة، وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يعذر السالي ويذم، فمنها الملل. وقد قدمنا الكلام عنه وأن من كان سلوه عن ملل فليس حبه حقيقي، والمتسم به صاحب دعوى، وأن من كان سلوه عن ملل فليس حبه شهوة. والسالي من هذا الوجه ناسٍ مذموم.

ومنها الاستبدال، وهو وإن كان يشبه الملل ففيه معنى زائد، وهو بذلك المعنى أقبح من الأول، وصاحبه أحق بالذم.

ومنها حياء مركب يكون في المحب يحول بينه وبين التعريض بما يجد، فيتطاول الأمر، وتتراخى المدة، ويبلى جديد المودة، ويحدث السلو. وهذا وجه إن كان السالي عنه ناسيا فليس بمنصف إذ منه جاء سبب الحرمان، وإن كان متبصرا فليس بملوم؛ إذ آثر الحياء على لذة نفسه. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الحياء من الإيمان والبذاء من النفاق" فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المحب وابتداؤها من قبله والذم لاصق به في نسيانه من يحب. ثم منها أسباب أربعة هن من قبل المحبوب. وأصلها عنده فمنها:

الهجر، وقد مر تفسير وجوهه، والهجر إذا تطاول وكثر العتاب واتصلت المفارقة يكون بابا إلى السلو. وليس من وصلك ثم قطعك لغيرك من باب الهجر في شيء، لأنه الغدر الصحيح، ولا من مال إلى غيرك دون أن يتقدم لك معه صلة من الهجر أيضا في شيء إنما ذاك هو النفار.

لكن الهجر ممن وصلك ثم قطعك لتنقيل واش، أو لذنب وقع، لو لشيء قام في النفس، ولم يمل إلى سواك ولا أقام أحدا غيرك مقامك. والناسي في هذا الفصل من المحبين ملوم دون سائر الأسباب الواقعة من المحبوب. لأنه لا تقع حالة تقيم العذر في نسيانه. وإنما هو راغب عن وصلك وهو شيء لا يلزمه. وقد تقدم من أذمه الوصال وحق أيامه. ما يلزم التذكر ويوجب عهد الألفة. ولكن السالي على جهة التصبر والتجلد ها هنا معذور، إذا رأى الهجر متماديا. ولم ير للوصال علامة ولا للمراجعة دلالة. وقد استجاز كثير من الناس أن يسموا هذا المعنى غدرا إذا ظاهرهما واحد. ولكن علتيهما مختلفتان؛ فلذلك فرقنا بينهما في الحقيقة، وفي ذلك أقول:

لــو قيــل لــي مــن قبــل ذا إن ســوف تســلو مــن تــود
لحلفـــت ألـــف قســـامة لا كـــان ذا أبـــد الأبـــد
وإذا طويـــل الهجـــر مـــا معـــه مـــن الســـلوان بـــد
لله هجــــــرك إنــــــه ســـاع لبرئـــي مجتهـــد

فـــــالآن أعجـــــب للسلـــــــ ـــو وكنـت أعجـب للجلـد!

ثم الأسباب الثلاثة الباقية التي هي من قبل المحبوب، فالمتصبر من الناس فيها غير مذموم، لما سنورده في كل فصل منها، فمنها نفار يكون في المحبوب، وانزواء قاطع للأطماع.

وإني لأخبر عني، أني ألفت في أيام صباي ألفة المحبة جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما. وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية من العيوب، دائمة القطوب حلوة الأعراض، مطبوعة الانقباض مليحة الصدود. موقوفة على الجد في أمرها. غير راغبة في اللهو. على أنها كانت تحسن العود إحسانا جيدا، وجنحت إليها وأحببتها حبا مفرطا شديدا فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة وأسمع من فيها لفظة – غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع – بأبلغ السعي، فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة، فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء. تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا، فلبثن عذرا من النهار. ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا. بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها[٥٠] مفتحة الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن.

---

(٥٠) دورها.

وإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنسا بقربها متعرضا للدنو منها، في ما هو إلا أن تراني جوارحها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة. فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه. فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره. وكانت قد علمت كلفي بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عددا كثيرا. وإذ كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها. ثم نزلن إلى البستان. فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها. فأمرتها، فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثلهما – وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه!– ثم اندفعت تغني بأبيات للعباس بن الأحنف. فلعمري لكان المضراب إنما يقع على قلبي، وما نسيت ذلك اليوم وما أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا! وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها، وفي ذلك أقول:

لا تلمها على النفار ومنع الـ ـ وصل ما هذا لها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد أو يكون الغزال غير نفور!!

وأقول:

منعت جمال وجهك مقلتيا ولفظك قد ضننت به عليا
أراك نذرت للرحمن صوما فلست تكلمين اليوم حيا!!

ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الحان الغربي من قرطبة بلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة. وانتقلت أنا بانتقاله، ولم تنتقل هي بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك.

ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته وامتنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمت[٥١] الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا! إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال، واتصلت بنا تلك الحال بعده.

إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها —وقد ارتفعت الواعية[٥٢] قائمة في المأتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادب. فلقد أثارت وجدا دفينا، وحركت ساكنا. وذكرتني عهدا قديما، وحبا تليدا، ودهرا ماضيا، وزمنا عافيا، وشهورا خوالي، وأخبارا بوالي، ودهورا فواني، وأياما قد ذهبت، وآثارا قد دثرت، وجددت أحزاني وهيجت بلابلي على أني كنت في ذلك النهار مرزا مصابا من وجوه. وما كنت نسيت. ولكن زاد الشجى وتوقدت اللوعة وتأكد الحزن وتضاعف الأسف، واستجلب الوجد ما كان منه كامنا فلباه مجيبا. فقلت:

يبكي لميت مات وهو مكرم   وللحي أولى بالدموع الذوارف

فيا عجبا من آسف لامرئ ثوى   وما هو للمقتول ظلما بآسف!

(٥١) رزم الشئ جمعه.
(٥٢) رمان الزهر.

ثم ضرب الدهر ضرباته. وأجلينا عن منازلنا. وتغلب علينا جند البربر، فخرجت عن قرطبة. وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر. ثم دخلت قرطبة فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك. وما كدت أميزها حتى قيل لي هذه فلانة، وقد تغير أكثر محاسنها، وذهبت نضارتها، وفنيت تلك البهجة، وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية. وذبل ذلك النوار(٥٣) الذي كان البصر يقصد نحوه متنورا، ويرتاد فيه متخيرا، وينصرف عنه متحيرا. فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل، والخبر المخبر عن الجميع، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها، وعدمها الصيانة التي كانت قد غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا، ولتبذلها في الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك. وإنما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت. وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت. ولذلك قال من قال: إن حسن الرجال أصدق صدقا وأثبت أصلا وأعتق جودة، لصبره على ما لو لقي بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير، مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن.

وإني، لو نلت منها بعض الأنس، لخولطت طربا أو لمت فرحا. ولكن هذا النفار الذي أسلاني. وهذا الوجه من أسباب السلو صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم إذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء. ولا عهد

---

(٥٣) الصراح والصوت.

يقتضي المحافظة، ولا سلف ذمام، وفرط تصادف، يلام على تضييعه ونسيانه.

ومنها جفاء يكون من المحبوب، فإذا أفرط فيه وأسرف، وصادف من المحب نفسا لها بعض الأنفة والعزة، تسلي. وإذا كان الجفاء يسيرا منقطعا أو كبيرا منقطعا، احتمل وأغضى عنه. حتى إذا كثر ودام فلا بقاء عليه، ويلام الناسي لمن يحب في مثل هذا.

ومنها الغدر وهو الذي لا يحتمله أحد. ولا يغضى عليه كريم. وهو المسلاة حقا. ولا يلام السالي عنه على أي وجه كان ناسيا أو متصبرا. بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه. ولولا أن القلوب بيد مقلبها، لا إله إلا هو، ولا يكلف المرء صرف قلبه ولا إحالة استحسانه... لولا ذاك لقلت أن المتصبر في سلوه مع الغدر يكاد أن يستحق الملامة والتعنيف. ولا أدعى إلى السلو عند الحر النفس وذي الحفيظة والسرى السجايا من الغدر. فما يصبر عليه إلا دنئ المروءة، خسيس النفس، نذل الهمة، ساقط الأنفة. وفي ذلك أقول:

هــواك فلســت أقربــه غــرور   وأنـت لكـل مـن يـأتي سـرير
ومــا أن تصــبرين علــى حبيــب   فحولـك مـنهم عـدد كثيـر
فلـو كنـت الأميـر لمـا تعـاطى   لقاءك خوف جمعهم الأمير
رأيتـك كالأمـاني مـا علـى مـن   يلـم بهـا ولـو كثـروا غـرور
ولا عنهــا لمــن يــأتي دفــاع   ولـو حشـد الأنـام لهـم نفيـر

ثم سبب ثامن، وهو لا من المحب ولا من المحبوب، ولكنه من الله تعالى وهو اليأس، وفروعه ثلاثة: إما موت، وإما بين لا يرجى معه أوبة، وإما عارض يدخل على المتحابين بعلة المحب التي من أجلها وثق المحبوب فيغيرها.

وكل هذه الوجوه أسباب السلو والتصبر، وعلى المحب الناسي في هذا الوجه المنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة، من الغضاضة والذم واستحقاق اللوم والغدير غير قليل. وإن لليأس لعملا في النفوس عجيبا، وثلجا لحر الأكباد كبيرا وكل هذه الوجوه المذكورة أولا وأخيرا، فالتأني فيها واجب. والتربص على أهلها حسن، فيما يمكن فيه التأني، ويصح لديه التربص. فإذا انقطعت الأطماع وانحسمت الآمال فحينئذ يقوم العذر.

وللشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكي على الدمن[٥٤] ويثنون المثابر على اللذات وهذا يدخل في باب السلو.

---

(٥٤) جمع دمنة وهي آثار الناس.

وربما تزايد الأمر ورق الطبع، وعظم الإشفاق، فكان سببا للموت ومفارقة الدنيا وقد جاء في الآثار: "من عشق؛ فعف؛ فمات؛ فهو شهيد!" وأنا أعلم جارية كانت لبعض الرؤساء فعزف عنها لشيء بلغه في جهتها – لم يكن يوجب السخط – فباعها. فجزعت لذلك جزعا شديدا، وما فارقها النحول والأسف، ولا بان عن عينيها الدمع، إلى أن سلت.. وكان ذلك سبب موتها، ولم تعش بعد خروجها عنه إلا أشهر ليست بالكثيرة. ولقد أخبرتني عنها امرأة، أثق بها، أنها لقيتها وقد صارت كالخيال نحولا ورقة، فقالت لها: "أحسب هذا الذي بك من محبتك لفلان"! فتنفست الصعداء وقالت: "والله لا نسيته أبدا وإن كان جفاني بلا سبب". وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيرا..

وأنا أخبرك عن أبي بكر أخي رحمه الله. كان متزوجا بعاتكة بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصورين أبي عامر محمد بن عامر، وكانت التي لا مرمى وراءها في جمالها وكريم خلالها، ولا تأتي الدنيا بمثلها في فضائلها. وكانا في حد الصبا وتمكن سلطانه. تغضب كل واحد منهما الكلمة التي لا قدر لها فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام وكانت قد شقها حبه، وأضناها الوجد فيه، وأنحلها شدة كلفها به حتى صارت كالخيال المتوسم دنفا. لا يلهيها من الدنيا شئ ولا تسر من أموالها – على عرضها وتكاثرها – بقليل ولا كثير، إذ فاتها اتفاقه معها وسلامته لها. إلى أن توفي أخي – رحمه الله – في الطاعون

الواقع بقرطبة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة. فما انفكت منذ بان عليها من السقم الدخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام، في اليوم الذي أكمل هو فيه تحت الأرض عاما، ولقد أخبرتني عنها أمها وجميع جواريها أنها كانت تقول بعده: "ما يقوي صبري ويمسك رمقي في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته، إلا سروري وتيقني أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبدا، فقد أمنت هذا الذي ما كنت أتخوف غيره أو أعظم آمالي اليوم اللحاق به".. ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها، وهي كذلك لم يكن لها غيره، فكان كما قدرت، غفر الله ورضي عنها.

وحدثني أبو القاسم الهمذاني رحمه الله قال: كان معنا ببغداد أخ لعبد الله بن دحون الفقيه – الذي كان عليه مدار الفتيا بقرطبة – وكان أعلم من أخيه وأجل مقدارا. ما كان في أصحابنا ببغداد مثله، وأنه اجتاز يوما بدرب قطنة في زقاق لا ينفذ. فدخل فيه فرأى في أقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه. فقالت له: "يا هذا، إن الدرب لا ينفذ". فنظر إليها فهام بها، وانصرف فتزايد عليه أمرها، وخشي الفتنة فخرج إلى البصرة فمات بها عشقا رحمه الله.

وحكاية لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر: أن رجلا أندلسيا باع جارية – كان يجد بها وجدا شديدا – لفاقة أصابته من رجل من أهل ذلك البلد، ولم يظن بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التتبع. فلما حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسي تخرج، فأتى إلى الذي ابتاعها منه. وحكمه في ماله أجمع وفي نفسه فأبى عليه، فتحمل عليه بأهل البلد فلم

يسعف منهم أحد. فكاد عقله أن يذهب ورأى أن يتصدى إلى الملك فعرض له وصاح، فسمعه فأمر بإدخاله، والملك قاعد في علية له مشرفة عالية فوصل إليه. فلما مثل بين يديه، أخبره بقصته واسترحمه وتضرع إليه. فرق له الملك فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر. فقال له: "هذا رجل غريب، وهو كما تراه. وأنا شفيعه إليك". فأبى المبتاع وقال: "أنا أشد حيالها منه، وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غدا! وأنا في أسوأ من حالته". فعرض له الملك ومن حواليه من أموالهم فأبى ولج واعتذر بمحبته لها، فلما طال المجلس ولم يروا منه البتة جنوحا إلى الإسعاف. قال الملك للأندلسي: "يا هذا، مالك بيدي أكثر مما ترى، وقد جهدت لك بأبلغ سعي، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك وأنه يخشى على نفسه شرا مما أنت فيه، فاصبر لما قضى الله عليك". فقال له الأندلسي: "فمالي بيدك حيلة؟" قال له: "وهل ها هنا غير الرغبة والذل! ما أستطيع لك أكثر" فلما يئس الأندلسي منها، جمع يديه ورجليه، وانصب من أعلى العلية إلى الأرض فارتاع الملك وصرخ! فابتدر الغلمان من أسفل. فقضى أنه لم يتأذ في ذلك الوقوع كبير أذي. فصعد به إلى الملك فقال: "ماذا أردت بهذا؟" قال: "أيها الملك لا سبيل لي إلى الحياة بعدها!" ثم هم أن يرمي نفسه ثانية؛ فمنع. فقال الملك: "الله أكبر! قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة!" ثم التفت إلى المشتري فقال: "يا هذا! إنك ذكرت أنك أود لها منه وتخاف أن تصير في مثل حاله؟" قال: "نعم".. قال الملك: "إن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته، وقذف بنفسه يريد الموت لولا أن الله عز وجل وقاه فأنت قم، فصحح

حبك، وترام من أعلى هذه القصبة! كما فعل صاحبك. فإن مت فبأجلك! وإن عشت كنت أولى بالجارية! إذ هي في يدك ويمضى صاحبك عنك، وإن أبيت نزعت الجارية منك رغما ودفعتها إليك!!" فتمنع.. ثم قال: "أترامى!" فلما قرب من الباب ونظر إلى الهوى تحته رجع القهقرى! فقال له الملك: "هو والله ما قلت! فهم.. ثم نكل!".. فلما لم يقدر، قال له الملك: "لا تتلاعب بنا!.. يا غلمان خذوا بيديه، وارموا به إلى الأرض"، فلما رأى العزيمة! قال: "أيها الملك.. قد طابت نفسي بالجارية!" فقال له: "جزاك الله خيرا!".. فاشتراها منه، ودفعها إلى بائعها، وانصرفا!..

قبح المعصية

وكثير من الناس يطيعون أنفسهم ويعصون عقولهم ويتبعون أهواءهم ويرفضون أديانهم. ويتجنبون ما حض الله تعالى عليه ورتبه في الألباب السليمة من العفة وترك المعاصي ومقارعة الهوى. ويخالفون الله ربهم ويوافقون إبليس فيما يحبه من الشهوة المعطبة، فيوافقون المعصية في حبهم، وقد علمنا أن الله عز وجل ركب في الإنسان طبيعتين متضادتين: إحداهما لا تبشر إلا بخير ولا تحض إلا على حسن. ولا يتصور فيها إلا كل أمر مرضى. وهي العقل. وقائده العدل. والثانية: ضد لها. لا تشير إلا إلى الشهوات، ولا تقود إلا إلى الردى. وهي النفس وقائدها الشهوة والله تعالى يقول: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾.

فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان. وهما قوتان من قوى الجسد الفعال بهما؛ فهما يتقابلان أبدا ويتنازعان دأبا. فإذا غلب العقل النفس ارتدع الإنسان، وقمع عوارضه المدخولة، واستضاء بنور الله واتبع العدل، وإذا غلبت النفس العقل: عميت البصيرة، ولم يصح الفرق بين الحسن والقبيح والروح وأصل بين هاتين الطبيعتين وموصل ما بينهما وحامل الالتقاء بهما.

وإن الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم إلا بطول الرياضة وصحة المعرفة ونفاذ التمييز، ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن ومداخلة الناس جملة والجلوس في البيوت. وبالأحرى أن تقع السلامة المضمونة، أو

يكون الرجل حصورا[٥٥] لا أرب له في النساء ولا جارحة له تعينه عليهن قديما، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من وقاه الله شر اثنين دخل الجنة". فسئل عن ذلك فقال ما بين لحييه[٥٦] وما بين رجليه وإني لأسمع كثيرا ممن يقول: الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء فأطيل العجب من ذلك: وإن لي قولا لا أحول عنه: الرجال والنساء في الجنوح إلى هذين الشيئين سواء، وما من رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب، وطال ذلك – ولم يكن ثم من مانع – إلا وقع في شرك الشيطان واستهوته المعاصي واستفزه الحرص وتغوله الطمع. وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا ومكنته حتما مقضيا! وحكما نافذا لا محيد عنه البتة!

ولقد أخبرني ثقة صدق من إخواني من أهل التمام في الفقه والكلام والمعرفة، وذو صلابة في دينه، أنه أحب جارية نبيلة أدبية ذات جمال بارع، قال فعرضت لها فنفرت، ثم عرضت فأبت، فلم يزل الأمر يطول وحبها يزيد، وهي لا تطيع البتة، إلى أن حملني فرط حبي لها مع عمى الصبي على أن نذرت أني متى نلت منها مرادي أن أتوب إلى الله توبة صادقة. قال. فما مرت الأيام والليالي حتى أذعنت بعد شماس ونفار. فقالت له: أيا فلان، وفيت بعهدك؟ فقال أي والله، فضحكت.

---

(٥٥) عاجزا، غير قادر.
(٥٦) أي ما بين مكاني نبت شعر الذقن والشارب أسفل الفم وأعلاه أي اللسان.

وذكرت بهذه الفعلة ما لم يزل تداول في أسماعنا من أن في بلاد البربر التي تجاور أندلسنا يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره مما أراد أن يتوب إلى الله، فلا يمنع من ذلك، وينكرون على من تعرض له بكلمة ويقولون له: أتحرم رجلا مسلما التوبة.

ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجودا، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا، وأني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة، أعني الصلاح، غلطا بعيدا، والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت. والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل. والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة التركيب. والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره لي الوجوه البديعة الصنعة، ويتصدى للمشاهد المؤذية، ويحب الخلوات المهلكات. والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء.

وأما امرأة مهملة ورجل متعرض فقد هلكا وتلفا، ولذا حرم على المسلم الالتذاذ بسماع نغمة امرأة أجنبية. وقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد أفطر. وإن فيما ورد من النهي

عن الهوى بنص التنزيل لشيئا مقنعا، وفي إيقاع هذه الكلمة، أعني الهوى. اسما على معان، اشتقاقها عند العرب، دليل على ميل النفوس وهويها إلى هذه المقامات، وأن المتمسك عنها مقارع لنفسه محارب لها.

وشيء أصفه لك تراه عيانا، وهو أني ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلا يراها أو يسمع حسها إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل، وأتت كلاما زائدا كانت عنه في غنية، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك، ورأيت لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحا فيها ظاهرا عليها لا خفاء به، الرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء، وإما إظهار الزينة وترتيب المشي وإيقاع المزح، عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة، فهذا ظهر من الشمس في كل مكان! والله عز وجل يقول: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) وقال تقدست أسماؤه، (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) فلولا علم الله عز وجل برقة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلى القلوب، ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى، وهذا حد التعرض، فكيف بما دونه؟!

وقد اطلعت من سر معتقد الرجال والنساء في هذا على أمر عظيم، وأصل ذلك أني لم أحسن قط بأحد ظنا في هذا الشأن مع غيرة شديدة ركبت في قلم أزل باحثا عن أخبارهن كاشفا عن أسرارهن، وكن قد أنسن مني بكتمان فكن يطلعنني على غوامض أمورهن، ولولا أن أكون منبها

على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن في السر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباب!

وإني لأعرف هذا وأتقنه، ومع هذا يعلم الله – وكفي به عليما – أني برئ الساحة! سليم الأديم. صحيح البشرة تقي الحجزة[٥٧]، وإني أقسم بالله أجل الأقسام، أن ما حللت مئزري على حرام قط. ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت! إلى يومي هذا والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقي.

ولبعض المتقدمين، في قول الله عز وجل (وأما بنعمة ربك فحدث) قول: أن المسلم يكون مخبرا عن نفسه بما أنعم الله تعالى به عليه من طاعة ربه التي هي أعظم النعم، ولاسيما في المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه لسبب فيما ذكرته أني كنت، وقت تأجج الصبا وشره الحداثة وتمكن لقوة الفتوة، مقصورا محظرا على بين رقباء ورقائب فلما ملكت نفسي وعقلت، صحبت أبا على الفاسي في مجلس أبي القاسم الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه وكان أبو على المذكور عاقلا عاملا عالما، ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة، وأحسبه كان حصورا لأنه لم تكن له امرأة قط، وما رأيت مثله جملة علما عملا ودينا وورعا؛ فنفعني الله به كثيرا، وعلمت موقع الإساءة وقح المعاصي.

---

(٥٧) عقدة المئزد. والمعني طاهر الذيل.

ولقد ضمني المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي مشهورة بالصلاح والخير والحزم ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمتها معي النشأة في الصبا، ثم غبت عنها أعواما كثيرة. وكنت تركتها حين أعصرت ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت، وطلعت في سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت وانبعثت في خديهاأزاهيرالجمال فتمت واعتمت فاتت كما أقول:

خريـدة صـاغها الـرحمن مـن نـور جلـت ملاحتهـا عـن كـل تقـدير
لو جاءني عملي في حسن صورتها يوم الحساب ويوم النفخ في الصور
لكنـــت أحظـــى عبـــاد الله كلهـــم بـــالجنتين وقـــرب الخـــرد الحـــور

وكانت من أهل بيت صباحة، وقد ظهرت على صورة تعجز الوصاف، وقد طبق وصف شبابها قرطبة. فبت عندها ثلاث ليال متوالية ولم تحجب عنى على جاري العادة في التربية. فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى ويعاوده منسي الغزل. ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفا على لبي أن يزدهيه الاستحسان. ولقد كانت هي وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع إليهن، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل وفي ذلك أقول:

لا تتبـــع الـــنفس الهـــوى ودع التعـــرض للمحـــن
أبلـــيس حـــي لـــم يمـــت والعـــين بـــاب للفـــتن

وأقول:

وقائـــــــل لـــــــي هـــــــذا ظـــــن يريـــــدك فيـــــا

فقلـــــت دع عنـــــك لـــــومي ألـــــيس إبلـــــيس حيـــــا

وأول دم سفك في الأرض دم أحد ابني آدم على سبب المنافسة في النساء. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول. باعدوا بينأنفاسالرجالوالنساء

قال عبد الله وهو ابن مسعود: قال رجل! يا رسول الله أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: أن تدعو الله ندا وهو خلقك قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك أن يطعم معك. قال: لم أي؟ قال. أن تزاني حليلة جارك. فأنزل الله تصديقها: (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون).

ومما يدل على شناعة الزنا ما حدثنا القاضي أبو عبد الرحمن: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصاب في زمانه ناسا من هذيل، فخرجت جارية منهم فاتبعها رجل يراودها عن نفسها فرمته بحجر فقضت كبده. فقال عمر: هذا قتيل الله، والله لا يودي أبدا.

وإن في الزنا من إباحة الحريم، وإفساد النسل، والتفريق بين الأزواج الذي عظم الله أمره، ما لا يهون على ذي عقل أو من له أقل خلاق، ولولا مكان هذا العنصر من الإنسان وأنه غير مأمون الغلبة لما خفف الله عن البكرين وشدد على المحصنين. وهذا عندنا وفي جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل حكم باق لم ينسخ. وأقول في النهي عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ!

صـن الـنفس عمـا عابهـا وارفـض فـإن الهـوى مفتـاح بـاب المهالـك

فمـا لـذة الإنسـان والمـوت بعـدها ولو عاش ضعفي عمر نوح بن لامك

ومن عرف الرحمن لـم يعص أمره ولـو أنـه يعطـى جميـع الممالـك

فقـد بـين الله الشـريعة للـورى بـأبين مـن زهـر النجـوم الشـوابك

فلو أعمل الناس التفكر في الذي لـه خلقـوا مـا كـان حـي بضـاحك

فضل التعفف

ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه: التعفف، وترك ركوب المعصية والفاحشة، وألا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة. وألا يعصي مولاه المتفضل عليه الذي جعله مكانا وأهلا لأمره ونهيه، وأرسل إليه رسله وجعل كلامه ثابتا لديه، عناية منه بنا وإحسانا إلينا. وأن من هام قلبه وشغل باله واشتد شوقه وعظم وجده. ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقله وشهوته وأن يقهر دينه، ثم أقام العدل لنفسه حصنا، وعلم أنها النفس الإمارة بالسوء، وذكرها بعقاب الله تعالى، وفكر في اجترائه على خالقه وهو يراه، وحذرها من يوم المعاد والوقوف بين يدي الملك العزيز الشديد العقاب الرحمن الرحيم الذي لا يحتاج إلى بينة، فكيف بمن طوى قلبه على أحر من جمر الغضا[٥٨]، وطوى كشحه على أحد من السيف، وتجرع غصصا أمر من الحنظل، وصرف نفسه كرها عما طمعت فيه وتيقنت ببلوغه، وتهيأت له ولم يحل دونها حائل، لحري أن يسير غدا يوم البعث، ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع، وأن يعوضه الله، من هذه القرحة[٥٩]، الأمن يوم الحشر..

حدثني أبو موسى الطبيب قال: رأيت شابا حسن الوجه من أهل قرطبة قد تعبد ورفض الدنيا وكان له أخ في الله قد سقطت بينهما مئونة

(٥٨) شجر خشبة من أصلب الخشب ولهذا يكون في فحمه صلابة.
(٥٩) (بفتح القاف) الجرح.

التحفظ فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده. فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبعد عن منزله. فنهض لها على أن ينصرف مسرعا. ونزل الشاب في داره مع امرأته وكانت غاية في الحسن وتربا[٦٠] للضيف في الصبا. فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشى العسس[٦١] ولم يمكنه الانصراف إلى منزله. فما عمت المرأة بفوات الوقت وأن زوجها لا يمكنه المجيء تلك اللية تاقت نفسها إلى ذلك الفتى، فبرزت إليه ودعته إلى نفسها، ولا ثالث لهما إلا الله عز وجل. فهم بها.. ثم تاب إليه عقله وفكر في الله عز وجل، فوضع إصبعه على السراج! فتفقع ثم قال: "يا نفس ذوقي هذا وأين هذا من نار جهنم؟" فهال المرأة ما رأت. ثم عاودته! فعاودته الشهوة المركبة في الإنسان، فعاد إلى الفعلة الأولى.. فانبلج الصباح وسبابته قد اصطلمتها[٦٢] النار!! أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه؟ أو ترى أن الله يضيع له المقام؟ ..كلا إنه الأكرم من ذلك وأعلم.

ولقد حدثتني امرأة أثق بها أنها علقها فتى مثلها من الحسن وعلقته وشاع القول عليهما. فاجتمعا يوما خاليين. فقال: هلمي نحقق ما يقال فينا! فقالت لا والله لا كان هذا أبدا. وأنا أقرأ قول الله: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)، فما مضى قليل حتى اجتمعا في حلال.

---

(٦٠) (بكسر التاء) والمقصود أنها نشأت معه في الحداثة.
(٦١) الحراس الذين يطوفون ليلا.
(٦٢) استأصلتها.

وما أقدر في هذه الأخبار – وهي صحيحة – إلا أحد وجهين لا شك فيهما! أما طبع قد مال إلى غير هذا الشأن واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه، فهو لا يجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين، ولا في يوم أو يومين، ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لجادت طباعهم وأجابوا هاتف الفتنة، ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك، نظرا لهم وعلما بما في ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح واستدعاء الرشد لا إله إلا هو. وإما بصيرة حضرت في ذلك الوقت، وخاطر تجرد انقمعت به طوالع الشهوة في ذلك الحين، لخير أراد الله عز وجل لصاحبه. جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه آمين.

حدثنا أحمد بن محمد بن الجسور أحمد بن مطرق عن عبيد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك عن حبيب بن عبد الرحمن الأنصاري عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: أمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه".

ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب لوجب علينا إفناء الأعمار وإتعاب الأبدان وإجهاد الطاقة واستنفاد الوسع واستفراغ القوة في شكر الخالق الذي ابتدأنا بالنعم قبل استئهالها، وامتن علينا بالعقل الذي به عرفناه، ووهبنا الحواس والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات، وصرف لنا السموات جارية بمنافعها، ودبرنا التدبير الذي لو سلكنا خلقنا لم نهتد إليه، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا، وفضلنا على أكثر المخلوقات، وجعلنا مستودع كلامه ومستقر دينه، وخلق لنا الجنة دون أن نستحقها، ثم لم يرض لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبة لهم، قال الله تعالى: "جزاء بما كانوا يعملون". ورشدنا إلى سبيلها وبصرنا وجه ظلها، وجعل غاية إحسانه إلينا وامتنانه علينا حقا من حقوقنا قبلهن ودينا لازما له، وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التي رزقنا قواها، وأثابنا بفضله على تفضله.

هذا كرم لا تهتدي إليه العقول، ولا يمكن أن تكيفه الألباب. ومن عرف ربه ومقدار رضاه وسخطه هانت عنده اللذات الذاهبة والحطام الفاني، فكيف وقد أتى من وعيده ما تقشعر لسماعه الأجساد، وتذوب له النفوس، وأورد علينا من عذابه ما لم ينته إليه أمل فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم، وما الرغبة في لذة ذاهبة لا تذهب الندامة عنها، ولا تفني التياعه منها، ولا تزول الخزي عن راكبها، وإلى كم هذا التمادي وقد أسمعنا المنادي، وكان قد حدا بنا الحادي إلى دار القرار، فإما إلى جنة وإما إلى نار، إلا أن التثبط في هذا المكان لهو الضلال المبين.

خاتمة

هنا، أعزك الله، انتهى ما تذكرته إيجابا لك ووقوفا عند أمرك. ولم أمتنع أن أورد لك في هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويكثرون القول فيها: موفيات على وجوهها ومفردات في أبوابها، ومنعمات التفسير. مثل الإفراط في صفة النحول وتشبيه الدموع بالأمطار، وأنها تروي السفارة، وعدم النوم البتة، وانقطاع الغذاء جملة، إلا أنها أشياء لا حقيقة لها، وكذب لا وجه له. ولكل شئ حد، وقد جعل الله لكل شيء قدرا. والنحول قد يعظم، ولو صار حيث يصفونه لكان في قوام الذرة أو دونها! ولخرج عن حد المعقول، والسهر قد يتصل ليالي، ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين لهلك. وإنما قلنا أن الصبر عن النوم أقل من الصبر على الطعام. لأن النوم غذاء الروح والطعام غذاء الجسد. وإن كانا يشتركان في كليهما، ولكنا حكينا على الأغلب، وأما الماء فقد رأيت أن ميسورا البناء، جارنا بقرطبة، يصبر عن الماء أسبوعين في حمارة القيظ ويكتفي بما في غذائه من رطوبة!.. وحدثني القاضي بن جحاف أنه كان يعرف من كان لا يشرب الماء شهرا!

وإنما اقتصرت في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلا، وعلى أني قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يكتفى بها لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم. وسيرى كثير

من إخواننا أخبارا لهم في هذه الرسالة مكنيا فيها من أسمائهم وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتب الملكان ويحصيه الرقيبان من هذا وشبهه!

وأنا أعلم أنه سينكر على بعض المتعصبين على تأليفي لمثل هذا ويقول، "أنه خالف طريقته، وتجافى عن وجهته" وما أحل لأحد أن يظن في غير ما قصدته. قال الله عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم).

ولا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا، وأنت تجد لها في الخير محملا، فهذا، أعزك الله، أدب الله وأدب رسوله صلى الله عليه وسلم وأدب أمير المؤمنين. وبالجملة فإني لا أقول بالمراياة ولا أنسك نسكا أعجميا. ومن أدى الفرائض المأمور بها، واجتنب المحارم المنهي عنها، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس، فقد وقع عليه اسم الإحسان. ودعني مما سوى ذلك، وحسبي الله والكلام في مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع وفراغ القلب، وأن حفظ شيء وبقاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطري لعجب! على ما مضى ودهمني، فأنت تعلم أن ذهني متقلب، وبالي مهصر، بما نحن فيه من نبو الديار، والخلاء عن الأوطان، وتغير الزمان، ونكبات السلطان، وتغير الإخوان، وفساد الأحوال، وتبدل الأيام، وذهاب الوفر، والخروج عن الطارف والتالد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغربة في البلاد وذهاب المال والجاه، والفكر في صيانة الأهل والولد، واليأس عن الرجوع إلى وضع الأهل ومدافعة الدهر، وانتظار الأقدار، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه وأعادنا إلى أفضل ما

عودنا، وأن الذي أبقى لأكثر مما أخذ. والذي ترك أعظم من الذي تحيف. ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا تحد، ولا يؤدى شكرها، والكل منحه وعطاياه. ولا حكم لنا في أنفسنا ونحن منه وإليه منقلبنا وكل عارية فراجعة إلى معيرها. وله الحمد أولا وأخرا وعودا وبدءا وإني أقول:

جعلت اليأس لي حصنا ودرعا   فلم ألبس ثياب المستضام
وأكثر من جميع الناس عندي   يسير صانني دون الأرام
إذا ما صح لي ديني وعرضي   فلست لما تولى ذا اهتمام
تولى الأمس والغد لست أدري   أأدركه ففيما ذا اغتمام

جعلنا الله وإياكم من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين. آمين آمين. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

الفهرس